مروة سمير

رمية حجر

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

اقرأ
مكتبة الكندل العربية

رَمية حجر رواي-ة
مروة سمير
نسخة الكترونية خاصة بكندل أمازون
الغلاف: كريم آدم
المراجعة اللغوية: محمد حمدى أبو السعود
رقم الإيداع: ٢٥٦٣٩ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ١ - ٠١٩ - ٨٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨
جميع الحقوق محفوظة

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

«سمعث صوتا آتيًا من الغيب يقول إنهم في العالم الآخر بدأوا يشمون رائحة كريهة صادرة عن عالمنا؛ فنظر مستطلعًا فوجد السبب في الفساد المستفحل، فسألته: وماذا سنفعل؟ فقال: نحن نبدأ بالوعظ والإرشاد وإذا لم يُجد ذلك عمدنا كارهين إلى وسائل أخرى».
نجيب محفوظ ـ أحلام فترة النقاهة

ومضة

«إنها مُحرمة عليك!»
تردد الصدى، وحلق طائرٌ بعيدًا فوق السحاب، نظرتُ له وأردت مثله غزو السماء.. أردتُ أن أرى ويملأني اليقين.
تشبثتُ بأغصان الشجر.. التفت يداي حول فروعها، صعدت شيئا فشيئا حتى ارتفعتُ، لكن لم يكن الفضاء ما ينتظرني، بل طريق طويل ممتد.
أتبع المستطيلات البيضاء، علامتي الوحيدة، فقط أمضي وراءها، كأنني في طريق رأسي مخيف.. أسير وحدي لأعلى؛ لا أعلم متى سأصل أو متى سيظهر النور، إن كان ثمة نور.
لا شيء سوى ظلام يعتصرني، يقودني وحيدًا منسيًا، لنهاية الكون.
زلت قدمي فجأة وهزتني ضربات قلبي، اختفت علاماتي، نبذني الطريق، وهوى جسدي لأسفل، هوى ثقيلاً كحجرٍ في بركة ساكنة.

١

شهران أستمع، لا أقوى إلا على الاستماع..
أتأمل سقف الغرفة الأبيض، حتى انطبع في رأسي أثر كل ضربة فرشاة مرت عليه، أشعر أنني في غيبوبة أخرى أكثر هذيانا، عاجزًا مُسجّى على هذا الفراش، بعضلات واهنة لا تستجيب لي، فلا أملك سوى أن أستمع، لعلي أفيق بغتة وأستعيد حياتي، الحياة التي لا أذكرها لكن أعرف أنها أكثر ألفة وأمنًا بكثير مما أسمعه الآن عن حياتهم.
ـ صباح الخير، كيف حالكَ اليوم؟
كان وعيي مضطربًا لا أميز الأيام بدقة، لكن هذا الطبيب بالتحديد أراه كل يوم.
حدقت بصمت في ابتسامته الرسمية، راح يفحصني باهتمام ونشاط، مدليًا بتعليقات مشجعة بين حين وآخر، وهو يوصي بمزيد من التدريب والجهد لأتمكن من الحركة، ومزيد من التركيز لأتذكر أي شيء.
ـ أنا متأكد أن هناك من سيفرح بعودتكَ بعد هذا الغياب.
لم أكن واثقًا مثله أن هناك من ينتظرني، أو أن عالمهم بأكمله حقيقي كما يظنون. هل فقدوا عقولهم جميعًا؟
«الأمر بسيط جدًا، دعيني أوضح لك، أعطيني التاريخ الذي فعلت فيه الخير؛ وسأخبرك متى سيعود عليك بالخير، أو اعملي الشر وأعطيني تاريخ وساعة فعلتِك؛ وسأخبرك متى سيرتد عليك بالشر، لكنني أنصحك.. أنصح كل المشاهدين بأن يفعلوا الخير كي تحبهم الكواكب وتنسجم مع طاقتهم، فمن يَظلم؛ تظلمه الكواكب مستقبلاً، وفي وقتنا الحالي أصبح المستقبل قريبًا جدًا.
ـ الكواكب! هل هذا كلام علمي مؤكد؟
ـ بالتأكيد، علم الطاقة هو علم النجوم لكن بلغة أخرى، كل كوكب في السماء يحكم برجًا أو أكثر، لأن الكواكب عبارة عن طاقة.. وطاقة قوية يمكنها أن تفعل الأعاجيب! كالتي نراها الآن».
صوت التلفاز من جديد، كل هذا الهوس، الاهتمام الشديد بالعالم الجديد الذي يتحدثون عنه، يدفع الأسئلة والشك لعقلي، أيصدّقون حقًا أم يتمنون التصديق؟
ـ كواكب ونجوم! أستغفر الل-ه العظيم.. يصرون على تضليل الناس ولا يعترفون أن كله بأمر الل-ه.
ثرثرت سهير بالقرب مني؛ أكان اسمها سهير؟ لكنها لم تكن تتحدث إلي؛ أغمضت عيني أتظاهر بالنوم لأتجنب التفاعل معها، تاركا هذه المهمة لزميلتها التي حَكت بقلق:

ـ بالأمس توفيت جارتي أم وسام، نصحتها كثيرًا لكنها لم تصدّق، كنت أرى الكدمات الزرقاء تملأ جسدها، لكنها كانت تبرر سبب كل واحدة فيها، لا ترى دنو أجلها.. أستغفر الل-ه العظيم.. ليتها كانت راعت ربنا في شغلها وبيتها، الل-ه يرحمها.. ويرحمنا.
ـ ربنا رحيم.. أرحم مما نظن.
لم أتوقف عن التظاهر بالنوم إلا بعد انصرافهما، أتمنى لو يختفي بدوره الكابوس الذي أعيش فيه.
فتحت عيني لتحيط بي مجددًا الجدران البيضاء من كل اتجاه، لون محايد، مُلِحّ، يترك لك حرية تلوينه بأي ذكرى تريد، حرية تفقد معناها إن كانت خيارًا لا بديل له لتفهم.. لتتذكر.
لا أدري ماذا يحدث وعن ماذا يتحدثون. منذ أن استعدت وعيي، وجدت حياة مختلفة ودنيا جديدة، تتبارى الممرضات في عرض معلوماتهن، كلٌ منهن أمام الأخرى.
أستمع لهُن.. للتلفاز.. للأطباء.. للجميع؛ بذهول صامت وصدمة فسروها كنتيجة طبيعية لغيبوبتي.
ـ هذا هو الطبيب الجديد الذي أخبرتك عنه.
تناهت إلي أصوات قريبة من باب غرفتي.
ـ اسكتي، واستغفري الل-ه!
ـ أستغفر الل-ه العظيم! لكني لا أكذب، رأيته بعيني وهو لا يرفع نظراته عنها.
ـ هذا ليس من شأننا.
ـ أراهنك أننا قريبًا سنرى الكدمات الزرقاء عليهما معًا.
تعالت ضحكة ساخرة قصيرة قبل أن تبتعدا.
ذكرني شيء في صوت تلك المرأة بصورة بعيدة في ركن قصي من ذاكرتي، صورة مُقبضة غير مريحة، كأنني كنت أعرف امرأة مثلها، ثم حُجبت تلك الصورة فجأة، لا أريد أن أتذكر، دق القلق في جسدي، رغم هذه الذاكرة البيضاء أنا متأكد أن لي قائمة طويلة من الخطايا، ألهذا لم يأت عقابي بعد؟ لأنني لا أذكرها؟ لا أذكر حتى اسمي!
ماذا لو كانوا محقين في ظنونهم.. في عالمهم، هل سينالني العقاب مثلهم؟ أم أن ما أنا فيه هو العقاب؟ ما ذنبي؟ ماذا فعلت؟
لا أدري، لا أفهم، لا أحد معي.. ولا طريق أمامي.

٢

«النسيان دواء الروح، فما بال روحي تأبى الشفاء؟»
تنهدتْ قليلاً ألملم شتات فكري، أمسح جبيني في حركة لا إرادية لأتأكد من عدم تسلل أي من خصلات شعري خارج حجابي، وأركز بانتباه في أوراق العمل أمامي. إلى أن سادت المكتب بغتة همهمات خافتة، كان المدير يمر أمامنا وهو يحاول مداراة وجهه، متظاهرًا بعدم الانتباه لنظراتنا، لكنني رأيت قطرات العرق تغمر جبينه حتى وصل مكتبه واختفى داخله.
ـ أعوذ بالله، لا بد أنه ارتكب إثمًا كبيرًا.
قال زميل، لترد أخرى:
ـ الله أعلم، يقول إنها حادثة بسيطة بسيارته، وارتطم وجهه بالزجاج.. كدمة وستزول.
ـ كلهم يقولون هذا، أستغفر الله العظيم.
ـ ربنا يسترنا جميعًا.
ختمت زميلتي النقاش، وفضلتُ كالعادة عدم التدخل في الحديث، ربما لأنني ما زلت لا أستوعب كثيرًا مما يحدث، وإن اقشعر جلدي لمرأى الكدمة الزرقاء في وجه المدير الشاحب.
أنهيتُ عملي في الموعد المحدد بالثانية، وتوجهت لمدرسة الأطفال. بدت المدرسة ككل يوم مثالية، مبهجة. النظام والنظافة على أكمل وجه، كل شيء يلمع، المباني ذات الألوان المشرقة، الملاعب الحديثة التي تجدّد باستمرار، حتى أوراق الشجر يتم الاعتناء بها جيدًا، فتلمع بالخضرة والنضارة.
سلمتني المعلمة ابنتي بابتسامة تلازم وجهها، مؤكدة:
ـ كل شيء على خير ما يرام، أكلتْ وجبتها ولعبتْ بالألعاب التي اختارتها، وأنهتْ بعض الواجبات المدرسية على قدر ما تستطيع.
بادلتها الابتسام كالمعتاد أهوّن عليها، قبل أن أذهب لاستلام طفلي الصغير..
ـ لم يرغب في القيام بأي واجبات، لكنه لعب كثيرًا، وبخير الحمد لله.
هززت رأسي، أعرف ابني، الذي يصبح بشقاوته مصدر معاناة لكل من حوله. سرتُ أمسك كلا منهما بيد، نشتري بعض الطلبات قبل العودة للمنزل. كل شيء يبدو جميلاً في الشارع؛ واجهات المباني، البضاعة في المحلات، حتى الناس يرتدون ملابس جميلة ويعتنون بنظافتهم جيدًا، فلا يؤذون الآخرين برائحتهم وتتراكم عليهم ذنوب صغيرة ليست في الحسبان. لا وجود لأي مضايقات أو تحرشات، يمكنني الخروج وقتما أشاء، أنا وأي امرأة، لم يعد هناك خوف من الرجال لأنهم يغضون أبصارهم خوفا من العقاب الفوري؛ كأن يتعثر أحدهم في سيره فجأة، أو يسقط عليه شيء من أعلى. كان العقاب العلني هو الأهون،

فالعقاب الحقيقي يبدأ عندما تجد الكون بغتة ينقلب ضدك، مشكلات من كل اتجاه تعرقل حياتك، فتصير تعسًا كئيبًا.. أعرف هذا الشعور.
لست متأكدة بالضبط كم سنة مرت منذ تغيرت الأمور، بالطبع أنا سعيدة.. كل أم سعيدة؛ لا تشعر بالقلق والخوف على أطفالها، فالآن لا خوف عليهم.. لا سوء يمسهم.. يلعبون ويلهون بحرية وأمان.
انخفضت الجرائم في كل البلاد لأقل المعدلات، وتصاعد المد الديني في معظم الدول مع الحرص على عدم المغالاة، كل شيء يبدو مثاليًا، فقط ينقص شيء.. شيء لا أعرفه ولا يصل لروحي.
تقافز الصغير في سيره، بينما سارت الفتاة برصانة. المسكينة الصغيرة، هل تحمل همّ المستقبل وترك مرحلة الطفولة؟ عليها الالتزام قريبًا بكل القواعد والأخلاقيات التي أجمع الأغلبية أن فيها النجاة من حوادث القدر، فلا أحد سوى الأطفال يتمتع بالأمان الفردوسي.
ـ ماما.. لا أحب الفاصوليا! قلت لك هذا مليون مرة!
هتف الولد العنيد ما إن وضعتُ أطباق الغداء.
ـ أنت من قلت بالأمس إنك تريدها، كلها يا حبيبي.. ستعجبك صدقني.
ـ لا! لا أحبها، أريد بطاطس!
ـ لا يوجد غيرها؛ أنا متعبة ولن أطبخ ثانية! كلها وإلا...
صمتُ أنظر لعينيه البريئتين بقلق، مُتعَبة أنا؛ أستيقظ كل يوم من الفجر أجهز الفطور والملابس، أوصلهما للمدرسة وأذهب لعملي، بعد ساعات طويلة نعود جميعًا للمنزل، أسخن الطعام الذي أقضي أمسياتي في إعداده، ليكون جاهزًا وقت رجوعنا، لا طاقة لي لعمل إضافي بسبب عبث أطفال!
أليس من حقي أن أكون حازمة؟ هل يمكن أن يصيبني السوء إن قسوت عليه قليلاً؟
تداعت لذهني حكايات وأخبار متعددة عن مواقف مماثلة، أقسام المستشفيات التي تمتلئ بأمهات بإصابات مختلفة، كلها تحدث عادة بعد عقاب أطفالهن، الذعر المسيطر على كل أم في التعامل مع «أحباب الـ-ه» غير المكلفين، كل زميلاتي يحكين عن حرصهن الشديد في معاملة أطفالهن، عن انتظارهن بفارغ الصبر اليوم الذي يبلغون فيه وتنتهي مرحلة الطفولة لتنقلب الأوضاع.. أو تعود لطبيعتها على الأصح، فيخشون غضبنا عليهم ويحرصون على إرضائنا.
أما الآباء فكثيرون منهم لم يتحملوا الوضع، سافروا للعمل في مدن أخرى، وأحيانا دول أخرى، حتى يتجاوز أطفالهم تلك المرحلة المضنية. مهنة التدريس باتت هي الأصعب، بسبب الحذر الشديد في التعامل مع الأطفال، ولولا الخوف من عقوبات قدرية لاستقال أغلبهم إن لم يكن جميعهم، ولتوقف الكل عن التعامل مع الأطفال في جميع المجالات مفضلين السلامة.
كانت إحصاءات منظمة الصحة العالمية وتقارير المنظمات المختلفة مذهلة، في السنوات الأخيرة أكدوا أن نسبة وفيات الأطفال دون الثانية عشرة انخفضت لأدنى المعدلات. أصبح

من المستحيل لأحد أن يتجاهل مطالبهم واحتياجاتهم، فبعد سلسلة من الخسائر والحوادث لأغنى وأشهر رجال الأعمال؛ بدأت المؤسسات الخيرية وجمعيات حماية الأطفال في الانتشار. بدأ الأمر بتجربة من أحد الأثرياء، قام بعمل مؤسسة لرعاية أطفال الشوارع؛ وما لبثت خسائره أن توقفت، قبل أن تتصاعد أرباحه من جديد. اقتنع البعض، وأنكر البعض الآخر. ورغم كل المشككين؛ انتشرت التجربة كالنار في الهشيم لدى جميع الخاسرين.
تفاوتت درجات الخسارة والربح تبعًا لنوايا كل منهم كما خمّن الناس، فلا شيء يحدث صدفة الآن، لا أحد يستطيع الادعاء طويلاً أو إخفاء نواياه، كل شيء ينكشف ويظهر ما إن تبدأ الكدمات الزرقاء، أو الحوادث القدرية المفاجئة.
توترتْ أكثر.. ترددتْ..
لماذا أخاطر؟ بعد كل ما حدث ونجاتنا بأعجوبة، لماذا أخاطر؟ لا بأس في الحذر لأجلهما.. كي أعتني بهما.
ـ حاضر يا حبيبي، سأجهز لك البطاطس.
تعالت صيحاته المبتهجة، ونظرة نصر تلمع في عينيه، أما البنت فابتسمت بهدوء كعادتها، ثم قالت:
ـ وأنا أريد تورتة بالشيكولاتة كالتي أعددتها بالأمس.
رمقتهما بغيظ مكتوم واتجهت للمطبخ. بالتأكيد أحبهما، بل أكثر مما تحب أي أم أطفالها في هذا الزمن، كل ما في الأمر أن الخوف يزيد هذا الحب.. وضعفهما يزيدهما براءة.
ودون خوف أو ضعف، تبدو براءتهما ناقصة.. وحبهما مختلفًا.
لكن لا يهم.. أستغفر اللـه العظيم، المهم أنهما بخير.

* * *

وصلتْ المزرعة بعد رحلة مرهقة بالسيارة، لم يخفف عليّ الطريق سوى المزارع المنتشرة على الجانبين، نزح الكثيرون بعد غرق مدنهم، بدا كأن ثمة وعيًا جمعيًّا يشمل الكل الآن، يبدأ أحدهم الفكرة وتنتشر بسلاسة وسرعة بين أكبر عدد ممكن، والنتيجة الجنّة الخضراء التي تحيط بي الآن، مجتمع زراعي متقدم، ذو وعي وثقافة، مجتمع لم أتخيل أن أراه في بلدنا يومًا.
تمنيتُ ككل إجازة لو يمكنني العيش هنا والابتعاد عن كل شيء آخر، لكن وحده الأمل كان يبعدني عن هذه الراحة، يعدني بما هو أجمل إن واصلت المثابرة.
ترجلنا من السيارة وتجاوزنا السور الخشبي والصغيران يسبقانني بمرح وحماس، اتجه الشقي للأرجوحة، وانشغلت فتاتي بتفحص النباتات التي زرعتها المرة الماضية، راقبتهما لدقائق بصمت، قبل أن يظهر مُضيفنا الوسيم من البيت الذي يقع في وسط المزرعة، يقترب مني مرحّبًا وابتسامة حانية ترتسم على وجهه.
ـ سأستريح قليلاً في غرفتي.
قلتُ بعدما انتهى من ترحيبه الودود، فردّ:

ـ ارتاحي كما تشائين، عندما يجهز الغداء سأخبرك.
أومأت برأسي مبتسمة وصعدت للطابق الثاني المفروش ببساطة وبأساسيات ضرورية تحمل لمسة أمي، ويتضمن عدة غرف منها غرفتي.
استلقيت على فراشي بتعب، أغمض عيني، أحاول النوم فتتسلل المشاهد خلف جفني، أحاول ألا أفكر.. ألا أتذكر، فيأبى عقلي إلا أن يعود عدة سنوات للخلف، يغرقني في مزيد من الذكريات.. أسمع صوت أمي..
«جربي.. ماذا ستخسرين؟»
أبدأ كل شيء من نصيحتها؟
كانت أول مرة أسمع فيها اسم ياسين الشهاوي، وكنت خارجة توًا من قصة حب لم تحطم قلبي أكثر مما حطمت كرامتي.
عملت لعامين سكرتيرة في شركة متوسطة للاستيراد والتصدير، قبل أن ينضم إلينا عادل، شاب أنيق لطيف، مجتهد في عمله، سرعان ما أصبح الساعد الأيمن للمدير بصفقاته الناجحة ولباقته مع العملاء، ودون سابق إنذار وجدتني محل اهتمامه، يشاركني لطفه ومزاحه، وطعامه في الأيام التي نعمل فيها وقتًا إضافيًا، أعود لبيتي كل مساء مشرقة متوردة، امازح أمي وأخويّ، وأمضي بقية المساء في الشرفة مع أبي، ينساب صوت أم كلثوم لروحي من راديو عتيق يعشقه أبي، وأغرق أكثر في حلمي. علاقة لم أتوقعها، لم أسع إليها، هكذا فجأة وجدتني أعلق في نظرات متبادلة، أعلق في ابتسامة جذابة ومشاعر تتصاعد بيننا.
ثم كان ذلك اليوم، غمر المطر الشوارع، وجرفتني بهجة الشتاء للموافقة على توصيله لي، إحساس رائع بأننا معزولان وحدنا عن العالم في سيارته، والعالم كله غارق في البرد والمطر.
ـ هل أسير في الاتجاه الصحيح؟
سألني فانتبهت أرشده للطريق، خف المطر، انقشعت الغيوم، واتضحت الرؤية، قطعت سيارته الشوارع المرصوفة الواسعة، لندخل شوارع أضيق، وطرقا متكسرة، لا بد أن تنكسر ماسورة صرف كل عدة أيام، فتمتلئ الشوارع حولنا ببرك المياه والوحل، بحُفر وحجارة؛ دليل عملية إصلاح تبدأ عادة ولا تنتهي.
ـ هنا؟
سأل بتردد، يرمق ما حوله بنوع من الصدمة، يتأمل منزلي بطلائه المقشر ومناشر الغسيل المغطاة بمشمع من البلاستيك.
ـ نعم هنا.
أكدت له، أتأمل منزلي مثله، أنظر لشرفتي في الطابق الثاني، أمتن لأمي لأنها أدخلت أصص زرعي الصغيرة للداخل، وتركت الكبيرة التي تتحمل المطر، بأوراقها العريضة اللامعة، بعد أن جمعت الغسيل أولًا.
ـ آها.
همهم عادل، فنظرت له نظرة طويلة مباشرة، جعلته يشيح وجهه في النهاية لا يعرف لأين

ينظر.
ـ شكرًا.
همست وفتحت باب السيارة أغادر بهدوء، حاول الابتسام وهو يودعني فبدت ابتسامته جانبية قلقة.
ابتعدت متجهة لمنزلي وقطعة من طلاء البيت المقشر تطمس قلبي.
لم تكن قصة حب عنيفة، لكنها كسرت شيئًا فيّ، كسرت قدرتي على الحلم باختيار من أحب.
تجنب عادل بعدها الحديث معي في أمر غير الشغل، وبدأت الأخبار تتداول عن خطبته لفتاة من أسرة راقية. أثقلت الإهانة روحي، وخبأت كل مشاعري خلف ابتسامة السكرتيرة الدائمة.
بعدها بفترة قصيرة أتى معتز الشهاوي ومعه ابنه ياسين ليخطبني، لم أشعر بالقبول أو الرفض، فنصحتني أمي بأن «أجرب».. أوافق على الخطبة وأفكر على مهل، فالشاب وسيم ثري ذو نسب وأصل، فرصة لا يمكن أن تتكرر لفتاة في مثل ظروفي، لولا روابط القرابة والأصل القديم بين أبي وأبيه.
لكن لم يكن هناك مجال للتفكير في فترة الخطوبة، كانت مليئة بالتجهيزات والاستعدادات للزفاف الذي تمّ بعد ستة أشهر، كانت لحظة سعادتي الكبرى وأنا أسلم دعوة الفرح لعادل قبل أن أترك العمل، ياسين معتز الشهاوي.. من لا يعرف معتز الشهاوي؟! رجل واسع الثراء يمتلك أشهر مصانع ومحلات الملابس، في مصر وتركيا.
نظرة عادل الشاحبة وهو يبارك لي كانت تساوي الدنيا كلها، لم أدرك فداحة ثمن هذه اللحظة إلا بعد شهور قليلة من الزواج، أستوعب بصدمة وصمت أن زوجي زاهد فيّ لأقصى حد، وأنه لم يتزوجني إلا ليوافق أبوه على سفره إلى تركيا ليتولى إدارة مصنعه هناك، كما أكدت لي حماتي أكثر من مرة.
«جربي.. ماذا ستخسرين؟»
ترددت جملة أمي في ذهني كل يوم بعد الزواج وأنا أعدّ خسائري، كم فتاة مثلي انقادت لأن تجرب، فخسرت وهجها وأحلامها، وجدت نفسها فجأة على قضبان قاسية، لا يمكن أن تحيد عنها وإلا تدمر كل شيء، عليها المواصلة دون تفكير.. دون فرصة للتراجع.
شعرت أنني خدعت، بالتأكيد لا تساوي لحظة انتقام، من قصة حب تافهة، زواجًا غريبًا كالذي تورطت فيه، أسأل نفسي كل يوم لماذا لم يحاول زوجي أن يحبني؟ أردت أن أجرب مشاعري كامرأة وزوجة يريدها زوجها.. لكنه تجاهلني تمامًا، لم أفهم.. لم أعتبر نفسي يومًا باهرة الجمال، لكن أستطيع تمييز أن لي وجهًا لطيفا وجسدًا متناسقًا، يطري الكثيرون بشرتي الناعمة، ويسألونني عن طرق لا أعرفها للعناية بها، أقرأ في روايات أحبها: «من يوقظ الحلم الساكن في ثنايا جسدها، من يعلمه على مهلٍ فن الاحتراق». فلمَ لم يجذب الحلم زوجي، ولماذا لم يهتم قط بفن الاحتراق؟
ساعدتني حماتي على الفهم بتكرارها أن ابنها تزوجني تلبية لرغبة أبيه، وتلميحاتها المستمرة عن علاقاته بنساء جميلات في تركيا، وهو أمر بدت مشاعري فيه على الحياد.. ربما لأنني لم

اصدّق، فحماتي غير راضية عن هذا الزواج من البداية، تتفنن في قول ما يضايقني ولو كذبًا، كان لها هذا التعبير المتكبّر دومًا على وجهها المزين بعناية، ونظراتها الممتعضة، كأنها في حالة نفور دائمة من الجميع، وأنا أولهم.
سافر ياسين بعد أسبوع واحد من زواجنا، وتركني مع والديه، في منزلهم المزدحم بالأثاث الغالي والقطع الثمينة في كل ركن. جمعتني علاقة أبوية قوية مع حماي، وباءت بالفشل كل محاولاتي لإرضاء حماتي، لا بد أن تجد شيئا يفلت غضبها وتعليقاتها اللاذعة حول نشأتي الفقيرة وأسرتها الأرستقراطية. قررتْ في النهاية تجنبها قدر الإمكان، وركزتْ كل اهتمامي مع صغيري، الذي أتى بعد تسعة أشهر بالضبط من زواجي، واحترقت مراكبي خلفي.
كم يبدو كل هذا حلمًا بعيدًا الآن، زمنًا آخر، وحياة أخرى تغير فيها كل شيء. وقفت أمام النافذة تجذبني رائحة الهواء البارد، يبدو أنني لن أنام الآن، سافر بصري مع الخضرة الممتدة أمامي، والغيوم المتلبدة في السماء.. ستمطر، فقد بدأ الشتاء، لكن حتى الشتاء يؤلمني، يأخذني لوجع وحلم، لسراب أحاول ألا أضيع فيه.
حركت أصابعي على الزجاج أرسم بالبخار وجهًا رجوليًا، غير مبتسم جاد العينين، بخصلات ثائرة فوق جبينه، امتزج مع انعكاس صورتي على الزجاج، ومنح الوجه نظرة حيّة نفذت لقلبي بألم لا يحتمل.
ـ الغداء جاهز، لا أظن أنك نمت بسرعة.
دخل غرفتي يُعلن بعد طرقة مختصرة، ابتسمت قليلاً، وأزالت أصابعي بهدوء ملامح الزجاج، قبل أن ألتفت نحوه وأعده باللحاق به بعد قليل، ليمنحني بضع دقائق أخرى مع نفسي..
أغمضت عيني، لماذا تسكن أحلامي وتعذبني بصحوة لا أجدك فيها؟
أفلتت تنهيدتي فتكونت طبقة جديدة من البخار على النافذة أمامي، لا أعرف متى سأتوقف عما أفعله، أو إن كنتُ سأتوقف يومًا، أدعو اللـه خوفا وطمعًا ألا يعاقبني على هذا الذنب، أدعوه أن أصل لغايتي، أو تتوقف الذكريات وينتهي الألم.

٣

ـ ما كان يجب أن تتسرع يا صاحبي.
ـ لا تنقصني نصائحك، لدي ما يكفي من الكآبة والفوضى في حياتي!
ـ ألستَ مرتاحًا لعودتك؟ ندمت بهذه السرعة؟
ـ ما كان يجب أن أعود لهذا البلد من البداية، وليس للمنزل القديم فقط!
تنبهت فجأة لأفيق من نومي، نظرت حولي بتوتر فبدت الغرفة وجدرانها البيضاء كما هي، حاولت التشبث بلمحة الذاكرة التي اقتحمت أحلامي، لم تكن وهمًا، كنتُ متأكدًا أنها ذكرى وقعت لي، وأنني أعرف هذا الشخص الذي كان معي، بوجهه النحيل وشعره الفوضوي مع ذقنه الطويلة، كان كل شيء واضحًا ما عدا ملامح وجهه، لا أراها.. لا أذكرها أو أذكر اسمه.
لم أجد وقتًا كافيًا للتفكير، اقترب ممرض شاب متين البنيان، يخبرني بالابتسامة التي تلتصق بوجوههم دائمًا، أنه موعد التدريب والعلاج الطبيعي. فبدأت ساعات العذاب اليومية، أحاول تحريك هذا الجسد العصي العاجز، فيعاندني كأنه ينتقم مني ويزيد شقائي.
ثابرت بكل وهني وعزيمتي حتى أكملت وقت التدريب المحدد، عدت لفراشي على وشك أن أفقد الوعي من الإجهاد، لكن كان يجب أن أستعيد نفسي وحياتي، أن أخرج من هذا المستشفى، لعل اللعنة تكمن فيه، بأطبائه وممرضيه وتلفازه، والعالم ظل كما هو.. كما تركته، وعليّ فقط أن أتحرر منهم.. يجب أن أتحرر منهم.. ترددت الكلمات في رأسي، أسقط في هوة عميقة من الذكريات.
ـ سعيد أنك عدت هنا، لشقة أبيك رحمه الله، بدلًا من غلقها هكذا، رغم أني بالطبع لا أوافق على ما فعلت!
تناولتْ أحد الكتب قبل أن أجلس وأقول:
ـ فعلت ما كان يجب أن أفعله منذ سنوات يا عمي، لا أمل في أن تتغير.
ـ لديك بنت! فتاة! ستكبر ويقول الناس إن أمها مُطلقة!
ـ سيكون هذا التفكير قد اندثر، لا تقلق من هذه الناحية.
ـ عنيد مثل أبيك!
ابتسمت حينها بصمت أنشغل بتصفح الكتاب ولم أرد.
ـ حمزة وأمه من بقيا لي يؤنسان وحدتي.
أخبرني وهو يحمل طفلًا صغيرًا يلهو في ركن الغرفة، كنت أرى كل شيء بوضوح إلى أن أقترب منه فيتلاشى.
سألني الطبيب في الصباح التالي ماذا تذكرت، فوجدت صمتًا يحتل ذاكرتي، تلاشى كل

شيء، كيف لم أرني حتى الآن؟
طمأنني كالعادة وتركني أتابع صمتي، أحاول العثور على نفسي في تلك الومضات التي باتت تتوالى بسرعة وكثافة.
عمي.. أراه بوضوح، أذكر هذه الليلة، ليلتي الأولى في منزل أبي القديم، بناية أنيقة من ثلاثة طوابق بناها عمي منذ عشر سنوات وقتها، وأصر أن لأبي نصيبًا فيها ومنحه الطابق الثالث، ما أشعل كره زوجته لنا. هجرتْ المكان بعد وفاة والدي، كنت قد تزوجت بعيدًا عن الجميع، إلى أن طلقت فاضطررت لترك شقتي ذات الإيجار المرتفع والعودة إلى هنا، أوفر مصاريف النفقة والمدارس الباهظة.
تمسكت بذكرى عمي وذلك المنزل، أحاول أن أقترب أكثر من نفسي.
«الخوف لا يمنع الموت، بل يمنع الحياة.»
تردد صوت ناعم في رأسي، اقتربت أكثر بذاكرتي لأرى.
تكررت زياراتي لعمي بناء على إصراره، فباتت الشيء الوحيد الذي يجعلني أشعر أنني فعلاً أنتمي لعائلة ولست وحيدًا كالمعتاد، أنا وشاب قريب لزوجة عمي، وله مكانة كبيرة عند عمي نفسه، فقد كان متقد الحماس، مليئا بالطموح، يتحدث دائمًا في السياسة:
ـ أنا متأكد أن تيار الثورة الجديدة مختلف عن أي مرة سابقة.
أخبرته بمنطقية:
ـ ها قد قلتها بنفسك، ليست المرة الأولى، تمر السنون ويتغير الرؤساء ونظل بين ثلاث فرق لا تتغير، نظام قديم، وتيارات المشايخ، وثورة جديدة.. في كل مرة يدّعون أنهم الثورة الجديدة القادمة، لكن نقع كالعادة بين المطرقة والسندان، وينتهي الأمر لصالح أحدهما، ولا نخرج إلا بالشعارات.. عشر سنوات لم نر سوى شعارات لا تصلح إلا لشاشات التلفاز، والكل ينهار عند أول اختبار حقيقي للمبادئ التي ينادي بها، لا فائدة.
ـ هناك أمل بالتأكيد، نحن لم نهزم.. لكن لا نعرف بعد كيف ننتصر.
أشرق طيف سماوي اللون، يضع صينية مشروبات أمامنا، يقول:
ـ معك حق، أحب دومًا أن أصدق الأمل، رغم كل ما حدث تبقى الثورة شرفا لكل من شارك فيها، أبي كان يذهب للميدان كل يوم، كان يقول لنا إما النصر وإما نهاية الكون؛ طفح الكيل، لكننا لم ننتصر.. ولم ينته الكون، الكون لا يتوقف لأجل أحد مهما كان.
أكد الشاب:
ـ لكنه سيتوقف هذه المرة لأجلنا، صدقوني، كل أصدقائي في الحزب متفائلون.
قال عمي محذرًا:
ـ لا تنجرف وراء حماسك، تعرف أكثر مني كم الشباب في المعتقلات الآن، بعد كل انتخابات يختفي شباب المعارضة أو يقبض عليهم.
ـ الخوف لا يمنع الموت، بل يمنع الحياة، كما يقول نجيب محفوظ.
ردّد صوت الطيف الأنوثي، وارتسمت بسمة شجن على وجه الشاب، حتى قال عمي مغيرًا

الموضوع:
ـ أين البيتزا البيتي التي وعدتني بها في العشاء؟
غابت بضع دقائق وعادت مع أطباق بيتزا شهية الشكل والرائحة، واختفت مجددًا.. لكن ظل حضورها قويًا وواضحًا يطرق منطقة ما في ذاكرتي، رائحة الفرن الدافئة التي تملأ المكان كل ليلة؛ شيكولاتة.. قرفة.. زعتر وريحان، شيء مختلف كل مرة، حتى قهوتها المفضلة بالبندق كنت ألتقط رائحتها ما إن تحضرها.
حاولت أن أركز.. أن أقترب منها، لكن جاء صوت عمي يقاطعني:
ـ أرأيت أخبار الإسكندرية؟ يقولون إن البلد مقبل على تغيرات مناخية كبيرة.
كان الأمر يثير اهتمامي بالفعل، قلتُ وأنا أدرك أن الطيف قريب منا:
ـ موضوع غرق الإسكندرية له أسس علمية، قرأت تحقيقات وتقارير عديدة عن الوضع العالمي إجمالاً؛ هناك نحو عشرين مدينة مهددة بالغرق حول العالم بسبب ارتفاع منسوب مياه البحر، منها طبعًا الإسكندرية.
العالم كله مهتم بظاهرة الاحتباس الحراري، هناك اختبارات عديدة قامت بها جامعة أكسفورد، وأكدت أن القطب الجنوبي سيصبح دون جليد خلال عشر سنوات، نتيجة الاحتباس الحراري واتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون، أي إن الأراضي المنخفضة، كالدلتا لدينا، مهددة بالغرق وتسرب مياه البحر المالحة إليها، ما يقضي على أي فرص لزراعتها، إنها كارثة! هل ترون أحدًا مهتمًا بالموضوع أو يتناوله؟ بإهمالنا الجسيم سنخسر أخصب منطقة في البلد، لكن المستقبل دائمًا بعيد، فلماذا نهتم؟
ـ لم أكن أتصور أن الأمر جدي لهذ الحد.
ـ بل في غاية الخطورة والجدية، يجب أن نهتم ونتحرك نحن، إن استسلمنا للغرق فلن يهرع أحد لنجدتنا.. إنه قرارنا.
ـ المخيف أنه كذلك، في بلد لا يجيد اتخاذ القرار.
ـ ربما نحن كذلك أيضًا؛ لا نجيد اتخاذ القرار في حياتنا.. لا نجيد إلا إقرار اليأس ببراعة والاستسلام للوضع الراهن.
وجم الطيف واختفى، وصعدت وحدي لشقتي في الطابق الثالث، أقف في شرفتي والسكون الشديد في المنزل يمنعني من النوم.
فكرت في سلمى.. طليقتي، التي فضلت عملها كمضيفة طيران على البقاء معي كزوجة طبيعية، لا زوجة بالمراسلة أراها كل بضعة أسابيع، أحيبتها كثيرًا ذات يوم، فلم لا تشعل ذكراها الآن ما عهدته من مشاعر نحوها؟ هل تخلصت من حبها هذه المرة بلا رجعة؟
بدت ذكراها كباقة زهور منسية في زاويا الذاكرة، لطيفة.. جذابة، لكن لا تغريك بالاقتراب؛ مفضلاً ألا ترى ذبولاً لست مستعدًا لمواجهته.
بقيت مكاني مع سجائري حتى أشرقت السماء بضياء ناعم، فتوهج بي الحنين لأيام مضت، لضحكات أمي وأبي في تلك الشرفة، لرنات الملاعق الفضية مع فناجين الشاي، لرائحة الفل

والريحان اللذين زرعتهما أمي بيديها، لسعادة بعيدة،كل شيء كان جميلاً.. كاملاً.
ذكراهما دومًا نقطة ارتكاز لي، شيء غالٍ وثابت في حياتي، أعود إليه كلما شعرت بالخواء.. بالألم.. بالوحدة، فأستعيد طاقتي من جديد.
كان الجميع يحسدهما على سعادتهما وتوافقهما، وأنا وحيدهما المدلل، يغدقان عليه الحب والبهجة، حتى توفيا معًا، وتوترت زيجتي أكثر، كأنهما أخذا معهما كل راحة، لأبقى وحدي في النهاية.
كنت على وشك الاستسلام للنوم عندما وجدت الطيف تسير للخارج، باتت أكثر وضوحًا، أذكر ذلك الصباح وهي تحمل صغيرها وحقيبة كتف وتجتاز الحديقة متجهة للبوابة. لم أفكر، سارعت ألحق بها، كانت بالكاد قد ابتعدت عدة خطوات عندما وصلت إليها.
أجفلت بوضوح قبل أن تلتفت إليّ وترتبك أكثر.
ـ صباح الخير.
ـ أنا آسف، لم أقصد إزعاجك هكذا، لكن رأيتك بالصدفة، كنت في الشرفة، واستغربت خروجك في هذا الوقت.. هل حدث شيء؟ هل كل شيء على ما يرام؟
ضحكت عيناها كشمس ذهبية وقالت:
ـ كل شيء بخير، لا تقلق، أنا أذهب كل يوم جمعة لأمي وأخويّ أقضي اليوم معهم.
ـ باكرًا هكذا؟
ـ البَركة في أستاذ زيزو الذي يوقظني كل ساعتين، لكنني فعلاً أحب أن أبقى هناك أطول فترة ممكنة، يوم الجمعة في منزل أمي مختلف عن هنا تمامًا، تشعل البخور من الفجر، وترفع صوت الراديو لنقل صلاة الجمعة، نفطر كلنا معًا ثم يذهب أخواي للصلاة، أتعرف؟ لا نشعل أي نور حتى المغرب، الشمس تغمر المنزل طوال النهار، أريد أن يعتاد حمزة على هذا، أريده أن يتربى كما تربيت.
شعرت أني أرى كل صورة رسمتها كلماتها، وتمتمت بمودة:
ـ جعلتني أرغب في الذهاب عندكم.
أطلقت ضحكة صغيرة، أحببت فمها وأسنانها البيضاء المستوية كاللؤلؤ، أذكر أنه أول شيء لاحظته فيها منذ رأيتها أول مرة وهي عروس في حفل زفافها.
لم تنتبه لأفكاري وردّت:
ـ اعذرني، أنا أتكلم كثيرًا حينما يتعلق الأمر بأسرتي، أتمنى لك يومًا سعيدًا أيضًا مع ابنتك.
ـ أشكرك، ما رأيك أن تنتظريني دقائق أبدل ملابسي وأوصلك؟ ربما لا تجدين تاكسي الآن.
تراجعت بخجل وهي تقول:
ـ لا، شكرًا جزيلاً لك، لكنني معتادة على الخروج الآن، عن إذنك.
احتضنت ابنها بقوة بين ذراعيها وسارت مبتعدة بخطوات ثابتة، ضحك لي الصغير من خلف كتفها، فابتسمت له تلقائيًا، لا أذكر متى كانت آخرة مرة رأيت فيها سلمى تحمل ابنتنا بهذه الطريقة كأنها كل ما تملك في الدنيا.. ولا مرة تقريبًا.

هببث من نومي فجأة أرفع جذعي دون انتباه.
ـ رائع، أرى تقدمًا هنا.
قالت الممرضة الخمسينية، أمومية الابتسامة. حدقت بها دون أن أراها.. كان كياني كله يتركز في فكرة واحدة، نطقت الكلمات بإصرار وجهد:
ـ بنت.. لدي.. بنت!
نظرت لي باهتمام وجدّية، فكررت بلسان ثقيل وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة:
ـ لدي.. ابنة! فتاة.. أريدها.. أريد.. أن.. أراها!
تحولت الجدّية في عينيها لشفقة، قبل أن تقول:
ـ إن شاء اللـه، اهدأ وحاول أن تتذكر أي تفاصيل تفيدنا في العثور عليها، عظيم جدًا أنك تذكرت، لكن الأهم أن تتذكر اسمك.. هويتك، لنستطيع البحث عنها، فكر يا بني.. اهدأ وفكر!
أفكر؟! وهل أفعل شيئا سوى أن أفكر؟
ألقيت رأسي على الوسادة بغضب مكبوت كحيوان حبيس، أريد أن أخرج من هنا، ولأفعل هذا يجب أن أتذكر كل شيء وأي شيء، ما زال كل شيء ضبابيًا.. كأنني أراقبهم من أعلى، لا أراني، أرى كل شيء ما عداي، حتى تلك المرأة التي تشرق الشمس في عينيها، ويضيء ثغرها الكون، لا أرى ملامحها، لكن أحس بها.. إحساس يخبرني أنها الوحيدة التي امتزجت بدمي، يخبرني أنني فقدت ست سنوات من حياتي
بسببها.

٤

ـ اقتربي، جربي، لماذا تخافين؟ لا تسجّل علينا ذنوب بعد.
ـ لا.. لا أريد، ماما أخبرتني أن من يرتكب كثيرًا من الأمور السيئة وهو صغير، سينال عقابه كله حين يكبر.
ـ هههه.. إنها تخيفك فقط، أنت حرة، سنبدو أجمل منك أمام أصدقائنا الجدد، محمد وإيهاب وعمرو.
دخلتْ غرفة الأطفال بحدّة بعد سماعي هذا الحديث بين ابنتي وابنة الجيران، كن أربع فتيات، ووجدت الفتاة التي كانت تتحدث تعيد أدوات زينة وأحمر شفاه بسرعة لحقيبتها، رمقتهما بنظرة جادة أقول:
ـ انضموا لنا في الحديقة يا بنات، أعددت لكنّ عصائر وحلويات.
نهضن بحماس وتسابقن للخارج، وضعت ذراعي على كتف ابنتي أؤخرها، لأقبّل رأسها بخفة وأخبرها:
ـ أنت فتاة طيبة يا حبيبتي، حفظك الل-ه لي.
أشرق وجهها الجميل بابتسامة خجول، كنتُ أحب ابتسامتها النادرة، نظرت لي بسعادة وامتنان قبل أن تلحق بصديقاتها.
بقيت بالقرب منهن في الحديقة أراقب من بعيد، كنت أعرف أن كثيرًا من الأطفال الذين أصبحوا على أعتاب المراهقة يقومون بتصرفات مباغتة ومتهورة قبل مرحلة البلوغ وبدء الكدمات الظاهرة، لم تكن خطة محبوكة تمامًا، فالبعض ينجو بأفعاله، والبعض الآخر يمتلئ جسده بالكدمات ما إن يترك مرحلة الطفولة، ظلت هناك حكمة غامضة في كل ما يحدث، ورغم اجتماع مجلس العلماء سنويًا لتعديل وضبط القواعد التي وضعوها والاحتياطات التي يأخذونها، فلا شيء يبدو صحيحًا بشكل مؤكد، بقدر ما يكون طوق نجاة لا نملك غيره.
نتبع جميعًا نفس القواعد، لكن القواعد لا تمنحنا بالتساوي نفس الأمان.
ـ ألم تغيري رأيك؟
سألتني زوجة أخي في المساء بعد أن انصرف الضيوف ونام الأطفال، وقفتْ تضع اللمسات الأخيرة على حجابها أمام مرآة الصالة في الدور الأرضي، صمتُ مفكرة، فتابعت تحمسني:
ـ لا أصدق أنك لم تحضري حفلاً كهذا من قبل، قريبًا سيأتي الدور عليك ويجب أن تأخذي فكرة عن الأمر، الأطفال نيام وآباؤهم معهم، هيا قومي، لا تتكاسلي.
ـ حسنًا، سأجرب لأجل خاطرك.
ونهضت أتجهز بسرعة، قبل أن أسير معها لمنزل قريب على بُعد عدة أمتار، كنت دائمًا ما

أتجنب هذه الحفلات، وأستغرب نفسي من عدم الاندماج مثل الجميع، لكن لأجل طفليّ عليّ أن أجبر نفسي لأظل جزءًا من عالمهم، مُلمة بكل قواعده واحتياطاته.
استقبلتنا امرأة بشوش الوجه، دعتنا للداخل حيث بقية النساء يتحدثن ويضحكن، وفي جانب الغرفة الواسعة طاولة أطعمة ومعجنات متنوعة، وعصائر ومشروبات دافئة تناسب الطقس البارد.
كان هذا النوع من الاحتفالات يقام سنويًا، كل مجموعة مقربة يجتمعن ليحتفلن ببلوغ أحد أولادهن وانتهاء مرحلة الطفولة، بكل ما تحمله من عبء وخوف وإصابات متنوعة للأمهات.
جلست مع زوجة أخي على أريكة صغيرة، بينما انهمكت بعض المدعوات في تناول أصناف الطعام الشهية، حتى قالت أم لابنتها التي لا تتجاوز الرابعة عشرة:
ـ كفى، أنت تفرطين في الطعام!
ـ لا لم أفعل!
ضحكت الأم ساخرة وقالت:
ـ ستعرفين غدًا عندما تجدين كدمة زرقاء في وجهك!
تدخلت صديقة تلومها بلطف أمام فزع الفتاة:
ـ لا تخيفيها، كدمة الوجه لا تصيب إلا من ارتكب متعمدًا ذنبًا كبيرًا.
ردت الأم بصلابة:
ـ لكن الإفراط في الطعام ذنب، دار الإفتاء أقرت أنه ذنب، بعد عدد من الوفيات نتيجة الاختناق بالطعام لأشخاص اشتهروا بنهمهم في الأكل.
ونظرت لابنتها متابعة:
ـ ضعي الطبق واذهبي لغرفة الفتيات، هيا!
تركت البنت الطعام بوجه متجهم وسارت مبتعدة، علقت امرأة تجلس في ركن الحجرة:
ـ يعجبني حزمك معها، لا يجدي معهم غير ذلك، يكفي ما أصابنا في سنوات طفولتهم القليلة، أعرف صديقة صدمتها سيارة لرفضها إعطاء ابنها مزيدًا من الحلوى! حتى لو كان الأمر حادثا قدريًا؛ هؤلاء الأطفال أخذوا حقهم وزيادة بشكل لم يحدث لأي واحدة في جيلنا! ويجب أن تعود الأمور لنصابها الآن!
ابتسمت الأم باعتزاز، في حين تدخلت زوجة أخي تقول:
ـ سمعت عن المرأة التي صدمتها سيارة منذ شهور، شاع أن الأمر بسبب عصبيتها الدائمة مع أطفالها. لكني على صلة بصديقة لأختها؛ أخبرتني أن الكدمات كانت قد بدأت في الانتشار في جسدها قبل الحادثة بأيام، وأن هناك ذنبًا كبيرًا في حياتها.
بدأت أتوتر، وبدأ الحديث الكريه المعتاد:
ـ أعوذ بالله، سمعت هذا أيضًا، لكن لم أشأ إخباركن من باب اذكروا محاسن موتاكم، كانت الله يرحمها ويسامحها تحب رجلاً غير زوجها، المقربون منها يعلمون القصة، مُدرس في مدرسة أطفالها كانت تتردد على شقته بانتظام، أعوذ بالله، لكن قبل وفاتها بأسابيع طلب

نقله لمدينة أخرى ليبتعد عنها، فلاحقته في كل مكان، حتى عرف الناس الحكاية وأخبروا زوجها، أستغفر الل-ه العظيم! كيف لا تنال عقابًا على ذنب كهذا!
تصاعدت دماء لاهبة لوجهي، شعرت أنهن سينظرن لي فجأة ويخبرنني أنني أستحق الموت، نهضت واقفة أشعر بالاختناق، واستأذنتهن بكلمات متوترة في الانصراف دون أن أنتظر زوجة أخي المعترضة.
سرت في الطريق العشبي بين المنزلين، أستنشق الهواء البارد بقوة، أحاول تهدئة أنفاسي.
يا الل-ه! كم أخافهم وأطمع في رحمتك، ألهذا لا أستطيع الاندماج في عالمهم؟ لأنني أعرف ذنبي القديم وأخشى العقاب؟ أخشى أن يلمح أحدهم كدمة في يدي أو وجهي ويعرف إثمي!
لم أنم ليلة قبل أن أفكر كيف سيكون عقابي، ألم اعاقب بما يكفي؟ آخذ الطفلين في حضني وأفكر.. أفكر في كل ماضيّ.. ولا أنام.. لا أستطيع أن أنام.

* * *

ـ أغلقي النور!
هتف بسرعة ما إن غادرتْ الحمام وانضممت له في الغرفة، تحركت بتردد وخجل أقول:
«لكن كنت أريدك أن ترى..»، خجلت أن أقول تراني، فأكملت بإحباط: «ثوبي».
تمتم باقتضاب وهو يبعد وجهه عني: «رأيته».
أغلقتْ النور.. وسرت نحوه في الظلام، أفكر في ثوب ليلة الدخلة الذي لم يره كما يستحق بعد أن دفعت فيه الكثير؛ اخترت أنعم دانتيل وأرق قماش، لأبهر عريسي بجمالي، لكن ها قد ذهب كل هذا في الهواء.
اصطدمت به بعدما وقف أمامي دون أن أنتبه، تملكني الخجل وهو يستكشف الثوب بيديه، كدت أغرق في حرارة اللحظة، لكنه ابتعد عني فجأة والتوتر يغمره.. يغمغم.. يستغفر.. يلعن..
لا أدري، تكرر هذا عشرة أيام.. عشرة أيام حتى.. تمّ الموضوع، أتصدقين؟
حكت لي رضوى بخجل بداية المشكلة مع زوجها، لكن كلتانا تعرف أنها ليست مشكلته وحده، وأن العجز النفسي الذي يصيب الرجال الآن من أشهر أمراض العصر.
«لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج»، هذه قاعدة بيت الل-ه، فكيف إذا صارت بيوتنا كلها بيت الل-ه، نعرف أنه معنا، نستشعر قربه حرفيًا في عدله النافذ وعقابه المتلاحق، كيف يمكن لإنسان أن يطلق رغباته ويستسلم لشهواته وهو في حضرة خالقه؟
كانت تلك مشكلة الرجال الكبرى الآن، ومشكلة لكثير من النساء أيضًا؛ كجارتي العروس الجديدة.
ـ حتى بعد زواجنا بشهور، إذا عاد من عمله ووجدني تزينت له يربدّ وجهه، دائمًا لديه عمل يجب أن يتمه قبل الغد، يطلب مني بجفاء أن أبقى في غرفتي، ويبتعد عني، أهذه تصرفات عريس ترضي الل-ه؟!
ضحكتْ وقلت مهونة عليها:
ـ إنه يحبك صدقيني، لكنه ضعيف أمامك لذا يتوتر ويعاملك بجفاء، اصبري عليه.

تنهدت:
ـ أحاول واللـه لأني أحبه وأعرف طيبة قلبه.
لم تمكث طويلا وعادت لمنزلها قبل أن يعود من صلاة الجمعة.
لم أستطع السفر الإجازة التالية بسبب الإرهاق، بقيت في المنزل تؤنسني زيارات جارتي، من القليلات اللاتي ارتحت لهن، هادئة خجول لطيفة، لا تشكو إلا من صعوبة إرضاء زوجها، وتستشيرني كي أمدها بمزيد من النصائح والأفكار لإسعاده، فأسخر من نفسي بصمت وأخبرها بما تودّ سماعه من نصائح جاهزة.
دوت طرقات شقية أعرفها بعد الانتهاء من الصلاة، فتحث لصغيري، أبتسم بحنان وهو يقول بزهو عارضًا ما بيديه:
ـ انظري، حصلت على المسك والبخور اليوم أيضًا.
ـ ما شاء اللـه، بارك اللـه فيك يا حبيبي.. هيا نشعل البخور.
انضمت لنا الفتاة تشاركنا الجلوس في الصالة المشمسة، كعادة أيام الجمعة؛ لا شيء سوى صوت القرآن وضوء الشمس ورائحة البخور.
لم يكن هناك أروع ولا أجمل من المساجد الآن، كان مجهودًا مشتركا بين وزارة الأوقاف وميسوري الحال في كل منطقة، يجدّد فرشها كل عام.. المكيفات تعمل بانتظام، يوزع المصلون المسك والبخور على بعضهم البعض، لا يؤمهم إلا شيخ ورع تقي، يشع وجهه نورًا؛ يدعو الناس لفعل الخير وحسن المعاملة؛ يحثهم على الكلمة الطيبة والصدقات، يرتل آيات الرحمة والمغفرة، فتلين القلوب وتستجيب.
تركتهما بعد قليل مع أطباق الحلوى والشاي بالحليب، وذهبت لغرفتي أختلي بنفسي، وقفت مغمضة العينين في هالة الشمس الدافئة أمام سريري لدقيقة، قبل أن أتحرك دون تفكير، أفتح دولاب ملابسي أتأمله؛ بدت الملابس كلها متشابهة ما عدا ثوبًا وحيدًا في نهاية الصف، أمسكته بحنين يغمر القلب.. أمرر يدي على قماشه الناعم، انعكس شعاع الشمس على حزامه اللامع.. فاغروقت عيناي بالدموع..
كيف لجرحٍ شفاف في القلب أن يؤلم لهذا الحد؟
بل كيف لأطياف حلم أن تحوي بهجة ألف حياة.

* * *

منذ عدتُ من إجازة المزرعة الأخيرة، وبث أكثر همًا، عالمي القديم يجرفني ويحضر حيًا في ذهني، فأحاول باستماتة الطفو فوق كل شيء.
في المساء بعدما دثرت الصغيرين جيدًا بالغطاء واطمأننت لنومهما، أخذت شالي الثقيل وكوب الشاي وجلست في شرفتي الصغيرة.
تناولت كتابي الذي لم أنهه منذ أيام، لكن لم أجد طاقة للتركيز فيه. غمرني الحنين لأبي الغالي، صديقي الأقرب، خمس سنوات الفارق بيني وبين أخويّ؛ جعل علاقتي به قوية ووطيدة، تشربت منه عشق أم كلثوم، وحب كوب الشاي الزجاجي مثله، علاقة مختلفة

اكتشفتها مع هذا الكوب البسيط بلونه القرنفلي، عن فناجين النسكافيه المتأنقة التي تلازمني طوال اليوم، حميمية آسرة تفتح أبوابًا منسية للبهجة، لذكرى ربما لم أمر بها يومًا، فأحلق في عوالم مضت لم أعشها إلا بروحي.
لم يكن أبي إلا موظفا حكوميًا بسيطًا، ومع ذلك يمتلك خبرة في الحياة ونظرة ثاقبة تجعل تحليله للأمور أمرًا محببًا ومفيدًا، أصارحه بكل شيء، لأنه آجلاً أم عاجلاً سيكتشفه وحده من نظرة واحدة إليّ، لا أعرف كيف، لكنه يفعل دائمًا.
كنت أشعر دومًا بعدم رضاه عن وضعي مع ياسين وسكوته لأجل خاطر صديقه، وتأكيده أنها فترة مؤقتة وسيجتمع شملي مع زوجي في أقرب وقت، لكن مات أبي قبل أن يفي معتز الشهاوي بوعده له، وربما مات وهو يحمل همّي، كنت حاملاً في طفل صغير، وعالقة مع زوج غائب، ضربتني الصدمة في الصميم، فقدت أبي وصديقي وناصحي الأمين، كأن دوره انتهى فجأة بزواجي، حاولت كثيرًا تعزية نفسي، أقنعها بأنني محظوظة لوجوده في حياتي طوال هذه السنوات، في طفولتي وصباي، رآني وأنا أتخرج في الكلية، أعمل.. أتزوج وأنتظر طفلاً،
أنا محظوظة ولست فتاة صغيرة اختفى والدها من عالمها فجأة فاختل توازنها، نعم أنا ممتنة حقًا لوجوده معي طوال هذا الوقت، لكن كل هذا المنطق لم يمنع شعوري الموجع بالنقص.. باليتم، ربما أكثر مما كنت لأشعر لو فقدته وأنا طفلة، طفلة لا أعي قيمة هذا الأب، لم أصبح صديقته بعد.. لم تنشأ بيننا تلك الصلة المميزة التي تتجاوز مكانة الأب المُعيل وحصن الأمان، مكانة غالية.. نادرة، خلوّها يدمي القلب، ويذكرني كل يوم؛ أنا دون أبي الآن، وأمام موت الأب لا نمسي إلا صغارًا.
بث وحدي فجأة، حائرة لا أدري أي قرار أتخذ، ثم أدركت أنني أصبحت مصدر الرزق الوحيد لأسرتي بالمبلغ الشهري السخي الذي يمنحه لي حماي كمصروف خاص لي.. كتعويض عن الوعد.
لم يكن في وسعي التراجع، كان عليّ الاستمرار، أقنع نفسي أنني في وقت ما.. في لحظة ما سأسيطر على حياتي من جديد، سأوقف القطار.. وأبدأ طريقًا جديدًا، بعيدًا عن زواج مع وقف التنفيذ، وانتقادات حماتي الدائمة ولسانها اللاذع.
فكرت وقتها أنني قد أتوسع في نشر رسوماتي، هوايتي الثمينة التي رافقتني من الصغر، لكن أبي أصر أن أدخل كلية تمكنني من إيجاد عمل حقيقي، فلم أدرس الرسم كما أحب، لكنني استمريت في المحاولة، كنت كل بضعة أسابيع أنشر إحدى رسوماتي في صفحتي الرسمية على فيس بوك، لم يكن لدي الكثير من المتابعين، فقط بضعة أصدقاء من الجامعة أو المعارف،لم يهمني كثيرًا عدد المتابعين بقدر أن أعبر عما أريد، هاربة من وحدتي.. ومن المواجهة.
أفلتت مني تنهيدة حزينة، أقسى ما تدركه النفس؛ أن تلك اللحظات المفعمة بالحياة، أصبحت ماضيًا لا يمكن إعادته.. لا يمكن إحياؤه.
اشتدت البرودة وبدأت قطرات ندية تتساقط، نهضت أحمل كوبي وأتجه للداخل، أغلقت

الزجاج أتأمل الشوارع بوجوم، على الأقل عرفت شيئا واحدًا عن الشتاء، أنه رغم جمال رائحة المطر؛ لا يترك لنا في النهاية سوى الوحل.

* * *

كنث في طريقي لاشتراء طلبات المنزل بعد عودة الطفلين من المدرسة، عندما استوقفني الشيخ خالد إمام الجامع القريب، ناداني باسم ابني ووقف قريبًا مني بيتسم ويختلس النظرات نحوي وهو يتكلم:

ـ أتمنى أن تكوني أعدت التفكير فيما عرضته عليك.

شددت ظهري أنظر له بحزم وأقول:

ـ أخبرتك من البداية أنني لن أعيد التفكير يا شيخ خالد.

لم تهتز ابتسامته وهو يرمقني، كان رجلاً في الخمسينات من عمره، اشتهر قديمًا ببرنامج ديني كان يقدمه على إحدى القنوات، وتوقف منذ سنوات، ليبدأ برنامجًا آخر العام الماضي في قناة «البَركة».

ـ أخشى عليك عقاب رفضك.

توترت لكنني أصررت:

ـ وهل رفضي لك ذنب؟

ـ ترفضين الحلال.

ـ لا تلو عنق الأمور، وتوقف عن الضغط عليّ.

ـ حاشا لل-ه، لا يمكنني أن أقع في ذنب كهذا، لكنك تعلمين جيدًا أنني معروف باستجابة الدعاء.

كنث خائفة منه؛ انتشرت كثير من القصص والحكايات عن أشخاص اختلفوا معه فأصابتهم ابتلاءات وحوداث متعددة، أيمكن أن اعاقب على ذنب لا أعرفه، لا أقصده؟ كنث واثقة من عدل الل-ه ورحمته، لا يمكن لأحد، ولو كان شيخًا يظن نفسه ذا حصانة خاصة، أن يجبرني على زواج لا أريده؛ فقط لأتجنب شره.

ـ عن إذنك.

قلتها بجفاء وأنا أحث خطاي مبتعدة عنه، فليبحث عن امرأة غيري لا تثقلها خطايا قديمة وآمال سرية، امرأة لا يذكرها وجوده إلا بآخر ما تودّ تذكره. كنث أظن أن نموذجها لن يتكرر الآن بعد كل ما تغير في الدنيا، نموذج يُصدّق أن له مساحة محصنة بحكم تاريخه السابق في العبادات؛ يأثم ويخطئ، ويظل من حقه احتقار الآخرين والتشكيك في درجات إيمانهم، لأنهم بالتأكيد أقل منه تدينًا. لكن ها هو يذكرني بها، الحاجة ثريا، حماتي في زمن آخر.

* * *

ـ أهلا يا «نجفة».

كانت حماتي ثريا تتابع مسلسها الهندي المفضل، حينما وصل حماي وحياها مازحًا.

رمقته بازدراء وقالت:

ـ فلاح!
ضحك مسرورًا، فتابعت بحنق:
ـ رائحتك مقرفة، اتفقنا أن هذه الصالة لي، لا تدخلها أنت وسجائرك هذه التي ستقضي عليك إن شاء الل-ه.
ـ المنزل كله ملكي يا نجفة، أدخل وأقعد في المكان الذي يعجبني، أنا من أدفع ثمن كل هذا، وأنت تجلسين هنا أربعًا وعشرين ساعة معززة مكرمة وكل ما تحتاجينه يأتيك.
ـ وماذا ستقول غير ذلك! اذهب من هنا.. ستضيع عليّ الحلقة.
أخذ قبضة مكسرات من صحن بجانبها وهو يقول:
ـ أريد أن أتعشى.. حضري الأكل.
لوحت بيدها وهي تسحب الطبق بعيدًا عنه:
ـ تعرف أن أم فتحي تغادر بعد المغرب، ولا تبقى لمنتصف الليل حينما تعود سيادتك! اذهب واجعل زوجة ابنك التي اخترتها تحضر لك الأكل بدلاً من جلوسها بلا فائدة طوال اليوم.
ـ آه فعلاً، نورا التي تجلس بلا عمل أو فائدة طوال اليوم!
رمقته بنظرة نارية، وأحكمت إغلاق كيس المكسرات وبرطمان الحلوى الكبير. كنت أتحرك بالقرب منهما ألاحق حمزة، فحملته وذهبت لأعد العشاء قبل أن يطلب مني.
لم أنشغل كثيرًا بأسلوبها الجاف أو تناقض تصرفاتها، إلا بعد مرض حميّ، بدأ الأمر بسعال شديد مضنٍ، جعلني أفكر في إلغاء زياتي الأسبوعية لأسرتي لأبقى معه أرعاه وأحضر له طلباته، لكنه رفض وأصر على أن وجود الخادمة يكفي، ولم أكن لأفوّت فرصة الهروب من صحبة حماتي، كانت لا تستيقظ قبل الظهر، تحكم إغلاق النوافذ لتمنع برد الشتاء، وتجلس في حضنها صحن كبير من المكسرات، تبدأ مكالمتها الهاتفية بثرثرة طويلة مع صديقة أو اثنتين، وأحيانًا تخصص تلك الفترة الصباحية للحديث مع أختها وانتقاد أولادها، لا سيما طيش علاء وانشغاله بالسياسة.
ثم تتابع التلفاز أو مواقع الأخبار، فقد سلب لبّها متابعة أخبار تيار ديني جديد تصاعدت شعبيته، عُرف بالشدّة، مستخدمًا شعارات قوية، عدائية أحيانًا، تتحدث كثيرًا عن انتظارها لليوم الذي يقوى فيه عودهم ليقتصوا من كل مُقصّر.
كان تغيّرًا لافتًا في شخصيتها، تراكم بالتدريج حتى بات واضحًا، ثريا سيدة المجتمع الأنيقة المتباهية بأصول عائلتها الثرية، والتي تخرج من حجابها «التربو» بضع خصلات مصبوغة بعناية، تتحوّل فجأة للحاجة ثريا الشغوفة بالتيارات الدينية، خمنت مثل حمي أن السبب قد يرجع لمجموعة من صديقاتها تحولن لهذا الاتجاه، فسارت معهن.
لم يتوقف حمي عن السخرية الدائمة من هذا التحول، ومن تبرعاتها المالية لهم وهي الحريصة على كل قرش، رغم عدة حوادث متفرقة استخدم فيها بعضهم العنف في النصيحة أو التوجيه.
لكن لم أكرهها فقط بسبب إهمالها لزوجها بعد أن اشتد عليه المرض، أو حتى تشدقها بالدين

طوال الوقت، تختصره في جمل محفوظة ترددها، دون أن ينعكس في تصرفاتها. بدأت أكرهها فعلاً منذ حاولت أن تقرّب بين قريبتها فاتن.. وبينه، زياد.. ابن عم زوجي.
فاتن، ابنة خالة الحاجة ثريا المفضلة، تكبرني ببضع سنين، تعيش وحدها مع أمها المسنة التي أنجبتها على كبر، فنشأت تتنقل بين سيدات العائلة، خدوم، مُطيعة، شديدة الامتنان.
أحبتها الحاجة ثريا وخصتها بكرمها وعطفها، كانت تعرف دومًا كيف تكسب رضاها لتأخذ منها ما لم تعطه لغيرها، ورغم مزاحها الثقيل وتعليقاتها المزعجة أحيانًا لم تكن حقودًا أو سوداء القلب، كنت أتفهم جيدًا أنها تحاول كسب مزيد من النقاط بإزعاجي أمام حماتي ليس إلا. نموذج للاحتياج الذي يجبر صاحبه على الطاعة الدائمة، فيحاول مع الوقت إقناع نفسه أن هذا ما هو عليه فعلاً، كي لا يفقد سقف الحماية الهش الذي يؤويه.
حكت لي فاتن أنها تزوجت منذ ست سنوات بابن جيرانهم، شاب بسيط الحال موظف حسابات في الحكومة كما تقول، قبل أن يتوفى في حادث انقلاب إحدى عربات الميكروباص، وهو في طريقه لمأمورية عمل كانت تدر لهم دخلاً إضافيًا.
وبعد أن ترملت منذ عامين وهي لصيقة بالحاجة ثريا، تأتي ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع لتطهو لها أكلة تحبها، أو تخرج معها لاشتراء ملابس جديدة، تكشف لها الأركان المنسية المتربة في المنزل، أو طاولة لا تلمع جيدًا، تهتم بمواعيد الأدوية إن أصابتها نزلة برد أو سعال، وتذكرها دومًا بالفيتامينات، تدلك قدميها أحيانًا بزيت الزيتون، وتغرق كلماتها بين مفردات التحبب وهي تتحدث معها «يا حبيبة قلبي..
يا روحي.. يا بركة أيامي».
ولأنها تبدو ألطف معي بعيدًا عن الحاجة ثريا، وتحب حمزة بإخلاص وتهتم به، غفرت لها كل تعليقاتها السمجة أمام حماتي.
حتى كان ذلك اليوم الذي قالت فيه حماتي لها:
ـ اسمعي يا فاتن، اذهبي واطرقي باب زياد، قولي له الحاجة تريدك أن تتغدى معنا.
ترددت فاتن ثم قالت:
ـ لا يصح أن أذهب لمنزله هكذا، أرسلي أم فتحي.
ـ لا تكبّري الموضوع، ستقفين على الباب وتنزلين بسرعة.. هيا قومي.. قومي.
نظرت فاتن لي تطلب دعمًا أو استنكارًا، فثبّتُ ملامحي على الحياد ولم أبد رأيًا، حتى تحركت تنفذ ما طُلب منها. راقبتها وهي تبتعد، إذن لم أكن أتوهم أنها تبدو اليوم أكثر أناقة من المعتاد، وأن ملابسها أضيق أيضًا من المعتاد، لتظهر قوامًا متناسقًا تطل مفاتنه بوضوح، هذه هي الخطة الجديدة لحماتي.. زياد وفاتن، تفكير منطقي، كلاهما وحيد، وربما يعجب زياد فعلاً بها، فبالإضافة إلى جسدها الجذاب لها وجه أبيض مستدير وعينان هادئتان كعيني حمامة، عادية الجمال، لكن تستطيع أن تكون لافتة إذا اعتنت بنفسها كما فعلت اليوم.
ـ سأبدّل ملابسي إذن.
نهضتُ أتجه لغرفتي، فقالت حماتي خلفي:

ـ لا ترتدي ملابس الخروج، ضعي أي إسدال واسع عليك.
التفتُّ لها أكتم ضيقي، وتمتمت: «سأرى».
كنت أعلم أنها لا تريد منافسة قوية لفاتن أمامه، وضحكت هازئة في نفسي، لا تفوّت شيئا أبدًا ما دامت قد عزمت على أمر، ولم يكن يهمني الأمر أصلاً، فالتقطت أول إسدال أمامي ولبسته، لم أكن أحب التبرج بشكل خاص، لكن لا أستطيع الاستغناء عن رسم عينيّ الواسعتين بالكحل الأسود، أتأمل بريقهما عبر المرآة فيسكن شيء بداخلي ويطمئن، إثبات وجود لشعلة صغيرة تحفظ توازني، لفتاة أعرفها تشد أزري، فأتابع طريقي.
عادت فاتن ضاحكة متوردة الوجه كعروس خجول وهي تخبر حماتي بأن المهمة تمت، وبعد دقائق انضم لنا زياد، بدا كما كان يأتي في الأمسيات السابقة، ببنطال جينز وقميص أنيق.
كان يدهشني دومًا أنه لا يشبه ابني عمه، زوجي وأخاه، فلياسين أخ أكبر، ماجد، تزوج وسافر ليعيش في أمريكا منذ سنوات، لا تتفق زوجته مع أمه أبدًا فقلت زياراته، ما جعل حماتي تكره زوجته أكثر من أي شيء.
كان لماجد وياسين بنية متوسطة الطول، وبشرة بيضاء وشعر ناعم، يشبهان أمهما أكثر، فلحماتي بقايا من جمال قديم، تحرص على إظهاره دائمًا.
أما زياد فأقرب شبهًا لرجال العائلة بقامته التي تميل للطول، وبشرته القمحية، مع شعر ناعم مجعد قليلاً.
كم أحببت تلك الأمسيات القليلة المنقضية، لم يكسر ملل أيامي سوى مناقشات حمي مع علاء وزياد، واجتماعهم حول مكتبة حمي الثرية. تتيح لي ملاحقة تحركات صغيري الدائمة في المنزل أن أستمع لأحاديثهم المختلفة، وأسمع كذلك قراءة زياد للشعر بين حين وآخر، ليشعل فيّ شغف القراءة المنسي، وأقبل عليها مجددًا.
أدهشتني أول قصيدة سمعتها منه يقرأها بصوت مسموع كعادته، أدهشني أن تكون عن الشتاء الذي أعشقه، ويأتي كل عام محملاً بهذا الكم الهائل من الفقد، يشعل لوعة الحب بفؤادك ويمضي.. يتركك تحترق بحاجة لشيء لا تعرفه.. لحب رسمته بكل تفاصيله ينقصه فقط من تهبه له، كفتيات كثيرات يعتّقن الحب في قلوبهن، وينتظرن.
لكن أنا ماذا أنتظر؟ ها قد أتى فارسي وانتهى الأمر، فماذا أفعل إن كان حبي الذي فصّلته لسنوات لا يلائمه، وأكتشف ذلك من جديد كل شتاء؟ كان اختياره لجزء من قصيدة محمود درويش رائعًا ومؤثرًا في نفسي.
«وكنت احبُّ الشتاء، وأسمعه قطرة قطرة..
مطر مطر.. كنداء يُزف إلى العاشق:
اهطل على جسدي!
لم يكن في الشتاء بكاء يدلُّ على آخر العمر..
كان البداية، كان الرجاءَ..
فماذا سأفعل، والعمر يسقط كالشعْر،

ماذا سأفعل هذا الشتاء؟!»
بدا زياد طيبًا جدًا وهو يلحق بي صباح يوم الجمعة ليطمئن عليّ، ذكرني بأخويّ الحنونين، لكن إنذارًا داخليًا كان يحثني دائمًا على توخي الحذر معه، خصوصا أمام حماتي، فلا أحتاج لتعقيدات جديدة في حياتي.
ـ هل أعجبك طاجن البامية؟ أنا التي أعددته بنفسي.
سألته فاتن بعينين تشعان بهجة على طاولة الغداء، ليجيبها مبتسمًا:
ـ بالتأكيد، إنه رائع.
أضافت حماتي:
ـ تونة طباخة ماهرة، ممتازة في كل شيء، حتى اسأل نورا.. ستخبرك أنها لا تجيد عمل نصف ما تقوم به تونة.
كنت أعرف أنها لا بد أن تزجّ باسمي في خانة الخاسر بالمقارنة، فمتى ستدرك أن المقارنة بكاملها لا تعنيني، أم يجب أن يعرف الزبون ـ العريس ـ أن هناك ما هو أسوأ ليظفر بما أمامه؟
ابتسمت في النهاية دون ردّ، لتقول فاتن مدافعة بحنان ناعم:
ـ الولد على يدها طول النهار يا حبيبتي، لكن عندما يأتي ياسين تنشط كالنحلة ما شاء الله.
متى سينتهى هذا؟!
ـ نورا! ابنك يبكي، اذهبي بسرعة.
هتفت حماتي فجأة، فلبيت طلبها بسرور وأمينتي تتحقق سريعًا.
في الساعات التالية تابعت من بعيد تدليل زياد، واعتناء حماتي وفاتن به، كان يتقبل كل ذلك ببساطة.. بابتسامات يوزعها على الجميع حتى أنا، لكن خيل لي أن الابتسامة التي يوجهها نحوي بالذات محملة بسخرية مبطنة؛ كأننا نتشارك نكتة ما.
ولوهلة لم يبد طيبًا جدًا كما ظننت من قبل.

* * *

تهربت دومًا من عروض توصيله لي، أتجاهل خروجه كل يوم جمعة في نفس الموعد لزيارة ابنته، يؤكد لي تعقلي ضرورة الابتعاد عنه، ويضيء حدسي لمبة حمراء صغيرة تنذر بالخطر؛ نادرًا ما نأخذها بجدية، أو لعلنا ندرك بتواطؤ داخلي أن هناك نوعًا من الخطر مرحّبًا به، لا يحتاج تصريح دخول، ولا يجدي معه الحذر. لكنني قاومت، قاومت حتى اقتحم حياتي فجأة حدث غريب جعلني لا أنام لليالٍ أشعر بالخوف.. بل الرعب، واضطررت إلى أن ألجأ إليه، قبل أن ادخل أخويّ في الأمر ويأخذهما التهور لما لا تحمد عقباه.
ـ زياد.. هناك شخص يطاردني!
كنت في طريقي لأسرتي كل أسبوع كالعادة، وتلكأت خارج البوابة، أراه دومًا يغادر في نفس موعدي لزيارة ابنته التي تقيم عند جدتها، ام زوجته، بعد طلاقهما.
انتظرت أن تظهر سيارته، ولم يتأخر كما توقعت، لا بد أنني فاجأته هذه المرة، لأنه ما إن توقف أمامي حتى صعدت جواره وابني في حضني دون دعوة، لألقي الخبر المفزع الذي أرّق

أيامي الماضية.
كرر لا يستوعب تمامًا وهو ينطلق في الطريق:
ـ ماذا تعنين بأن شخصًا يطاردك؟!
انفجر توتري وصوتي يرتعش:
ـ لا أعرف! فجأة، الجمعة الماضية، بعد أن غادرت منزل أسرتي؛ تقدّم مني شاب وسألني: «مدام نورا؟» ظننته أحد جيراننا أو صديقًا لأخويّ، فأجبته بنعم. من حضرتك؟ وجدته ينظر لي بطريقة غريبة.. وابتسامة سمجة؛ يقول إنه سعيد جدًا بالتعرف عليّ ويتمنى لو يعرفني أكثر! من الصدمة لم أرد.. لم أفهم.. وصلت السيارة التي طلبتها وركبتها بسرعة، لم يكن معي أخواي لأنهما في معسكر تابع للجامعة، ثم رأيته يسير خلفي بسيارته وابتسامة مستفزة على وجهه! شعرت بالرعب.. لا أعرف من هذا أو كيف يعرف اسمي! والمصيبة أن معه رقمي! لا أعرف من أين أتى به! ظل يتصل بي طوال الأسبوع الماضي.. أغلقت الهاتف في وجهه عشرات المرات.. لكن.. لكن خفت.. إنه يعرف أمورًا كثيرة عني! يعرف منزل أهلي ومنزلي هنا! يعرف أن زوجي مسافر! يعرف أشياء كثيرة، كثيرة! لا أدري كيف! لا أدري!
ـ أعطيني رقم هذا الحيوان وأنا سأربيه!
هتف منفعلاً، فرمقته بتردد وقلق:
ـ ثلاثة أرقام.. يتصل بي من ثلاثة أرقام مختلفة! كنت سأخبر أخويّ اليوم، لكن خشيت أن يتهورا إذا اتضح أنه من منطقتنا ويعرفانه، ففكرت أن آخذ رأيك أنت أولاً.
ـ لا، انتظري، سأتصرف أنا أولاً وبعدها سنرى، اسمعي.. سأمر لآخذك اليوم.. وإن لمحته فقط سأجعله يندم على يوم ولادته!
ـ زياد! أرجوك، لا أريدك أن تتهور أنت أيضًا!
نظر لي، شعرت أنه يريد حمايتي بأي طريقة، وقال:
ـ لا تقلقي، سأتصرف أنا، أعدك أنني سأنهي هذا الأمر.
ـ لا أدري كيف أشكرك.
في تهدج صوتي هذه المرة ارتياح وامتنان واضح، أخذ مني أرقام الشخص المجهول ثم رقمي ليطلبني ويطلعني على ما حدث.
توقف أمام منزلي كما أرشدته، لم يبدُ مهتمًا بالمكان، كان تركيزه عليّ، مرت عيناه على ملامحي بتأنٍ، بنيتان واسعتان تضمران حريقًا سريًا:
ـ لن أدع أحدًا يؤذيك أبدًا.
ارتعش الشكر على فمي، وصوته يبعث ذبذبات لذيذة في دمي، فتحت الباب بسرعة أستجمع شتات نفسي وأغادر بتوتر، أدفع مشاعرًا متقافزة على باب قلبي وأغلقه بعصبية، أدخل بيتنا مباشرة دون أن أنظر للوراء.. أهرب من شيء ما، شعور ما يُصرّ أن يشعله داخلي.
فوجئت باتصاله في آخر اليوم ليمرّ عليّ ويأخذني ليخبرني بما حدث في المكالمة، شعرت أن هناك أمرًا ما، ورغم رفضي في البداية استسلمت أمام منطقه وفضولي، لكن طلبت منه ألا

يدخل شارعنا وينتظر في الشارع الرئيسي.
لم يخفف توتري من صحبته إلا رؤيتي لابنته الصغيرة الجميلة معه في السيارة، زينة.
ـ ما شاء الل-ه، جميلة جدًا كالسكر.. أنت سكر؟
ضحكت بخجل طفولي من كلماتي، وأضاءت عيناها الخضراوان، فكرت أنها لا بد ورثتهما من أمها، التي هي كما خمنت جميلة جدًا، ثم أبعدت هذه الفكرة غير المريحة عن تفكيري، وانشغلت مع الصغيرة وهي تلاعب حمزة، واقفة بين مقعدي ومقعد والدها.
لم أنتبه إلا عندما توقف أنه لم يتجه للمنزل، وسألته بقلق:
ـ لماذا توقفت؟
ردّ محاولاً أن يبدو حسن النوايا:
ـ فلنجلس ونشرب شيئا مع الطفلين، وأخبرك بما حدث في المكالمة.
حدقت فيه بخوف:
ـ وهل حدث شيء؟
ردّ بحنان:
ـ لا تخافي.. لن يزعجك ثانية، كلمته وتوعّدته إن جرؤ على التعرض لك مرة أخرى، لكن علينا أن نفكر في بعض الأمور.. هيا بنا.
سرنا كأسرة واحدة، كل منا يمسك بطفله، حتى جلسنا حول إحدى الموائد وطلبنا العصائر والآيس كريم.
ـ لا أريدك أن تفزعي، لكنه عرفني يا نورا.. يعرف اسمي أنا أيضًا، ويعرف أمورًا كثيرة، كان يتحدث ببجاحة وثقة، هناك من ينقل له أخبارنا، هذا أكيد.
استمعت له بذهول لا أستوعب ما يقول، فأضاف بعد لحظة:
ـ فاتن.. أنا متأكد أنها هي.
قلتُ غير مصدقة:
ـ مستحيل.. لا يمكن!
استند على الطاولة أمامه وقال بنظرة مباشرة:
ـ بل يمكن.. وتعرفين لماذا.
ـ لماذا؟!
سألتُ بتعجب، فأطلق ضحكة قصيرة ثم قال:
ـ أنت بريئة جدًا يا نورا.. ألا تدركين سبب كل هذا الاهتمام والتدليل المفاجئ من زوجة عمك وإلصاق فاتن بي في كل فرصة ممكنة؟
لملمت شتاتي أتورد رغمًا عني:
ـ آه، نعم، لكن.. ما علاقة هذا بي؟
أمعن النظر لوجهي وقال:
ـ ألم أقل لك؟! بريئة جدًا!

تحول مقعدي لصفيح ساخن، تلفت حولي لا أدري أين أنظر، قبل أن أتشبث بابني وأعيده لحضني بعد أن كان يجلس جوار زينة.
ـ أتحبين ياسين يا نورا؟ لا أظنه زواجًا عن حب.
صمتُ طويلاً، ثم رفعت وجهي له بنظرة متماسكة أقول:
ـ لم تعد لهذا السؤال قيمة الآن، أنا زوجة ياسين وملتزمة بهذا الزواج ما دام قائمًا، وأتمنى أن تحترم حياتي الخاصة أكثر فيما بعد، أشكرك كثيرًا لاهتمامك ومساعدتك، علينا أن نذهب الآن.
قال محدّقا في عينيّ بقوة:
ـ حتى لو لم يكن مخلصًا لك؟ يتركك هنا كسيارة مركونة يعود لها مرة أو مرتين في السنة، ويعيش حياته ويستمتع من بلد لبلد ومن امرأة لأخرى؟
ارتعش جسدي:
ـ يبدو أنني كنت مخطئة في اللجوء إليك!
قال بسرعة وتوسّل:
ـ لم أقصد جرحك أو إهانتك! أنا آسف.. ربما أسأت التعبير.. أنا فقط لا أريدك أن تهدري حياتك مع شخص لا يقدّرك! لا يحبك! أنت تستحقين أفضل من ذلك يا نورا.. تستحقين أن تكوني سعيدة!
وقفتُ بملامح جامدة أحمل ابني وأبتعد بخطوات حازمة، حاول إيقافي واللحاق بي لكنني رفضت بإصرار، وغادرت ألوم نفسي وأكرهها؛ لما أثارته فيّ كلماته من مشاعر وأحلام.

* * *

«الل-ه أكبر الل-ه أكبر ولل-ه الحمد..
الل-ه أكبر كبيرا.. والحمد لل-ه كثيرا.. وسبحان الل-ه بكرة وأصيلا»
وقفتُ في نافذتي أستمع لتكبيرات العيد الشجية، ونسائم الصباح المنعشة تغمر وجهي، أخيرًا ذهبت البرودة القارصة لتصبح محتملة.. ورائعة، غمرني الحنين لأسرتي، لأبي.. كنا نخرج جميعًا لصلاة العيد، يصرّ على إعطائنا «العيدية» كل سنة كأننا لا نكبر، ويخصني كالعادة بحلوى خاصة، ما زلت أسمع صوت خشخشة الورق وأنا أفتحها مبتهجة، أغيظ أخويّ، كيف لا يكبر المرء مع إخوته أبدًا ويعود طفلاً مشاكسًا كلما اجتمع بهم؟
ابتسمت بأسى، ليتني استطعت النزول، لكنّ دور برد سخيفا أصاب حمزة منعني من النزول وأخذه معي للصلاة، فلا أحد في المنزل لأتركه معه، حضرت فاتن من بعد صلاة الفجر لتصحب حماتي للصلاة في المسجد، وبقيت أنا وحدي أتمنى أن امضي هذا العيد مع أسرتي ككل سنة، لكن صدمة اكتشاف حقيقة مرض حمي جعلني ألازمه؛ سرطان في الرئة، الحالة سيئة وفي مراحلها الأخيرة، لا يتحمل العلاج الكيميائي، ولا مجال لتدخل جراحي لانتشار الورم بشكل كبير، لا يمكن لأكبر الأطباء أن يقدّموا له سوى مسكنات حتى يرحل في صمت.
أخذتني الصدمة عن أي شيء آخر، وكلمتُ ياسين، كنا نتحدث كصديقين لا شيء حميميًّا

بينهما، وبدأت أحتقر نفسي لاستمراري في هذه المهزلة، لكن لم أستطع مصارحته عبر الهاتف بما أفكر فيه، لم تتولد فيّ هذه الجرأة بعد، ربما بسبب قطعة من روحي تتمثل في طفلي الغالي الذي أتى ببراءة، يحتل كل مساحة كانت لرغباتي وأحلامي، يشغلها وتتمركز حوله، تسحق احتياجاتي كامرأة وزوجة.. وتئد فتاة متنمرة داخلي تتوق للعشق، لأمنحه هو الأفضل والأكمل في الحياة، متخلية بكامل إرادتي المُكبلة بالأمومة؛ عن حياتي أنا.
هدأت عواصف أفكاري المشاغبة تلك الفترة لأنني في كل الأحوال لا يمكنني ترك الرجل الذي أصبح كأبي، وهو في أشد حاجته لي. أكد ماجد وياسين أنهما سيحضران في أقرب وقت، فقط سيرتبان أمورهما لإجازة طويلة أولاً.
ـ إجازة طويلة! وهل ستتركه العقربة التي معه يأتي لزيارة أبيه قبل أن يموت؟ كلا بالطبع، ستعطله حتى يموت أبوه دون أن يراه هو وحفيديه!
هتفت حماتي بانفعال ووجهها يحمر، نظرت حولي بقلق:
ـ لا تتحدثي عن الموت أرجوك أمام عمي، فالحالة النفسية مهمة جدًا له، ويجب أن نعطيه أملاً في الشفاء دائمًا.
ـ نكذب؟! استغفري ربك! إنه قضاء الل-ه الذي لا مفر منه.
شعرت بالعجز أمام منطقها، وقلت برجاء:
ـ طبعًا، ونعم بالل-ه.. لكن أملنا كبير في رحمة الل-ه.
ـ رحمة الل-ه في مثل حالته أن يرحل قبل أن يشتد عليه الألم.
قالتها بواقعية وتأثر في نفس الوقت، ولم أجد ردًا.
تناهى إلينا صوت سعال ينبئ باقتراب حمي، الذي قال بعد أن هدأ تنفسه:
ـ ثريا! لماذا أخبرت سلمان الجزار أن يَفصل خروفا كاملاً عن التقسيمة المعتادة للعجل والخروفين، كيف ستوزعينه؟
ردت بثقة:
ـ لوجه الل-ه، هذا أمر بيني وبين ربنا.
ـ لوجه الل-ه؟ ما شاء الل-ه! وكنت تعترضين من قبل على ذبح العجل وتوزيعه مع الخروفين، الحمد لل-ه أنك ستفعلين شيئا لوجه الل-ه أخيرًا.
احتقن وجه حماتي بشدة وصاحت:
ـ أنت يا من تصلي فرضًا وتفوّت عشرة تقول إنني لا أفعل شيئا لوجه الل-ه؟! انتظم في صلاتك أولاً قبل أن تلقى وجه كريم.. لا أعرف ماذا تنتظر أكثر من مرضك الذي أنت فيه!
ـ أنتظر أجلك قبلي يا نجفة!
وكان هذا الرد بمثابة إطلاق فقرة طويلة من الشجار والتعارك اللفظي المعتاد بين الزوجين، لم ينهه سوى نوبة سعال مؤلمة.
لطالما حيرني غضب حماتي المكبوت، الذي ينفجر لأقل سبب، كأن طاقة روحها استنفدت على مدار السنوات، فبدت الفجوة واضحة بينهما، هي من أسرة كبيرة وثرية، وهو رجل

عصامي بنى نفسه بكدّه وتعبه، ولم يتوافقا كثيرًا كما هو واضح، حتى أصبحت مزيجًا من نصف امرأة أرستقراطية، ونصف «حاجّة» ضلت الطريق.
فكرت في أمي.. أمي التي لم تكن في حياتها زاوية مرفهة واحدة كما تحيط الرفاهية بحماتي، لكن لا يحمل قلبها هذا الغضب والسخط، لا يحمل سوى الدفء والحب، رغم كل ما واجهته من صعوبات العيش وضيق اليد كثيرًا من الأحيان، آمنت من مراقبتها أن الإخلاص في العبادة والقرب من الل-ه يُنقي القلب من كل شائبة مهما كانت الصعاب، كانت تردد كثيرًا «نحن قوم إذا ضاقت بنا الأرض، اتسعت لنا أبواب السماء، فكيف نيأس؟»
- الحمد لل-ه الذي نجانا.
علقت ثريا بزهو غريب على خبر احتراق فندق ضخم في مكة، وكان الحادث الثالث هذا الموسم.
- ربنا المطلع على النفوس، لا يقبل زيارة بيته إلا من الصالحين، وليس الفسدة أو السارقين!
تابعت ثريا بلؤم، اربدّ وجه حمي وتمتم بكلمات غاضبة قبل أن يختفي في غرفته، والإجهاد واضح عليه. نظرت لي فاتن بابتسامة خبيثة مختلسة، فقد أخبرتني أن ثريا كانت تواظب على أداء العمرة والحج كل عام في السنوات الأخيرة، حتى بدأت هذه الحوادث وانقطعت عن الحرم منذ ثلاث سنوات، ولسبب ما لم أستغرب هذا التصرف منها، كما لم أفهم إلا لاحقًا سر تشفيها.
ومن بين كل هذه الضغوطات، أزهرت نبتات روحي فجأة تعيدني للرسم بحماس، لا أدري لماذا أصبحت أتوق لرسم الطيور والعصافير، لماذا أحببت لهذا الحد قرص الشمس، وأشعته السابحة على مد البصر.
أمزج الألوان بنشوة وأراقب ولادة اللون الجديد، أنا التي أمضي دومًا بلا حنين؛ يقتلني مزيج ألوان، يسحرني.. يغمرني بحنين جارف لجمال أشتاقه ولا أعرفه، يقنعني أنني ربما في حياة أخرى كنت قوس قزح.. أو لوحة بَهيجة الألوان.
كنت أرسم ربة منزل تحمل طفلاً وتحرك ملعقة في إناء فوق الموقد، بينما تستند بظهرها إلى نخلة بديعة الجمال في شاطئ فيروزي مليء بالحياة والألوان، وعلى وجهها جمال الحلم.
أو أرسم فتاة عادية في جلسة عائلية متجهمة، تمد يدها خلسة خلف مقعدها لتداعب سطح بحيرة رقراقة في غابة سحرية.
بدت رسوماتي أكثر نعومة وعاطفة، وغمرني الحماس للبحث عن الدورات اللازمة لتنمية موهبتي، أعد نفسي أنني سألتحق بها يومًا.
أخذت أخطط وأحلم بهذا اليوم وأنا في حديقة المنزل، حديقة دائرية متوسطة المساحة، رفضت حماتي زرعها على الدوام كي لا تجلب الحشرات، فقط أرض عشبية مسطحة، تمكنت سرًا أن أزرع فيها شتلات من النعناع والريحان، وأنواع معدودة من الزهور، كنت أعشق الزرع ولا أفتقد من منزلي أكثر من أصص زرعي.
مع الوقت علمت حماتي بفعلتي، وبعد وصلة من التقريع والتهديد برمي نبتاتي في «الزبالة»

إن جلبت أي حشرات؛ تركت الأمر يمر.
كانت ليلة لطيفة معتدلة البرودة، فأخذتْ حمزة وفرشت له بساط ألعابه بجانبي، أراقبه سعيدًا بالهواء المنعش، أستمتع بالروائح العطرة حولي، عبثت بخاتم زواجي أديره بشرود، أخذتْ نفسًا عميقًا.. وأغمضت عيني.
أيمكنني ولو لثوان أن أعود فتاة خفيفة ضاحكة، لا يهمني سوى الأكلة التي ستطبخها أمي والأغنية التي سأستمع لها ليلاً مع أبي؟
لماذا تقبع الآن قطعة حزن حارة في قلبي؟ لماذا أتخيل ماذا لو قابلت زياد قبل ذلك؟
لو لم أكن مقيدة بزواج مع وقف التنفيذ، حرة بلا ارتباطات أو شعور بالذنب، لو كان هو حبي الذي أشرق في أيامي وأحببت من أجله أغاني أم كلثوم.. أهديه أغنية ويرسل لي شعرًا!
ابتسمت هازئة من خيالاتي، ابتسامة لم تصل لروحي، فلم يكن في وسعي إلا الخيال، بخاصة عندما اضطررت إلى أن أنهض راكضة لأمنع حمزة من أكل أوراق الريحان فوق أغصانها:
ـ آه يا ربي.. لا فائدة! تحب أن تأكل أي شيء!
حملته أنوي العودة للمنزل عندما وجدت زياد يقترب نحونا، نظرت تلقائيًا لشرفة حماتي أتأكد أنها غير موجودة. لفني التوتر، شددت ذراعي حول ابني، ونظرت للقادم بقلق، لم أتحدث معه منذ آخر مواجهة بيننا، كان يأتي للمنزل أحيانا بدعوة من حماتي ليجلس مع فاتن، تلتصق به تريه فيديوهات مضحكة على هاتفها، وعندما أظنه مشغولاً تمامًا بها أجد نظرة عينيه نحوي تربكني، تسكنني، وتطيح بكل ثوابتي، فأهرب منه، وأتجنب وجوده.
ابتسم ابتسامة مطمئنة وهو يقول بلطف:
ـ الجو رائع، كنت متأكدًا أنك من زرعت هذه الجنّة الصغيرة هنا.
أبعدت عينيّ عنه، ولم أدر أين أنظر، بدا لطيفا جذابًا، وتذكرت جدالنا الأخير، فهزتني ضربات قلبي.
ـ هل هناك جديد بخصوص عمي؟ بدا منهكا ومنزعجًا في آخر زياراتي له.
سأل بمودة فهدأ توتري، وقلت:
ـ لا جديد للأسف، الأمر كله أنه لا يتوقف عن الجدال مع الحاجة ثريا بخصوص ذاك التيار السياسي.
هتف ساخطًا:
ـ لو كان ثمة عدل؛ لانقلب الأمر في وجهها، حتى ترى جماعتها المجنونة تهزم وتلملم ذيولها من الشوارع!
ـ أخشى من يوم كهذا، لا أتخيل كيف يمكن أن تتقبل الخسارة.
ـ صدقيني لن تفعل شيئا! منذ متى وهي امرأة دين، أنت لا تعرفينها مثلي، إنه خلل عقلي أصابها مؤخرًا، وربما تفعل كل هذا عندًا في عمي معتز لإهدار أمواله، ثريا لا يمكن أن تدافع عن الحق أو حتى تراه.
ـ ربما، كل منا يظن أنه يملك الحق المطلق، ولا يريد أن يرى سوى وجهة نظره.

ـ الحق ظاهر واضح، ولا يمكن أن يُرى إلا من زاوية واحدة!
ـ أود لو أصدق هذا، لكن الحياة ليست بهذه البساطة.
ـ لأن الحياة ليست عادلة يا نورا!
أشحت بعيني أتهرب من نظراته النافذة، وكدت أهم بالابتعاد حين قال فجأة:
ـ أحضرت لك هدية العيد.
حدقتُ فيه دَهشة رغمًا عني:
ـ ماذا؟ لم يكن هناك داع، لا أستطيع أخذ.. هدية منك!
قدم لي شنطة ورقية كبيرة، أنيقة:
ـ بل تستطعين بكل تأكيد.. تفضلي.
نظرتُ له مصدومة عاجزة عن اتخاذ القرار، حتى قال بضحكة صغيرة:
ـ لن أتركك تذهبين حتى تأخذيها.
ارتبكتُ أكثر.. نظرت مجددًا لشرفة حماتي، ثم أخذت الحقيبة منه، أتممتم شكرًا وأهرع للمنزل.
بعد دقائق طويلة حينما هدأت نبضات قلبي، وانشغل حمزة عني بألعابه، واتتني الشجاعة على فتح الهدية.
تباينت مشاعري بين الدهشة والتعجب.. ثم غمرت الدموع عيني؛ كان ثوبًا أبيض اللون غاية في الأناقة، ليس مكشوفا كثيرًا لكنه لا يصلح لأن أخرج به على حجابي بالتأكيد.
أجلت التفكير في دافعه وراء هذه الهدية، واعترفت لنفسي بأنه أهداني الخيال الذي كان يداعبني منذ قليل. شرعت أبدل ملابسي وأرتديه؛ بدا راقيًا بقماشه الحريري الناعم، دون أكمام وبفتحة عنق دائرية أنيقة، خصر ضيق يناسبني تمامًا مع حزام ذهبي رفيع هو الزينة الوحيدة في الثوب، ثم يتسع بجمال وينساب حتى الكاحلين.
أسدلت شعري الطويل على ظهري.. ثم جمعته على كتفي، هكذا أجمل. أحببت مظهري فيه أكثر من أي ملابس لبستها يومًا.. لم أفهم كيف! كيف أهداني دون أن يدري حلمًا روادني للحظات..
متألقة.. حرة.. لا يقيدني شيء.
أحطتُ جسدي بذراعي ورعشة غامضة في قلبي، لم أتحمل مواجهة بريق عينيّ المتوهجتين في المرآة، إحساسي بأنني أتوق لأن ارى.. لأن تنساب في أذني كلمات الغزل، ملأني خوفا، يشتعل داخلي شوق جامح لشيء لا أعرفه.. ولا أريد أن أعرفه.
تتبعثر مشاعري وتتمدد كموجات مياه حائرة قذفت بحجرٍ؛ لا تدري من رماه.. ولماذا بُعثرت.
تصاعد جرس هاتفي فالتقطته بسرعة ألغي الصوت أولاً، ارتعشتُ.. وخيالي يتقاذفني بلا هوادة، يغريني بشتى الحكايات والردود الرومانسية: «شششش.. لا تتحدث.. لا أريد أن أراكَ، أريد أن احبك دون بصيرة.. كما يجب للحب أن يكون».
فقط لو كنا في زمن آخر يصلح للحب، نفضت عني خيالاتي، اجبر عينيّ على النظر لمهد

صغيري وأنا أجيبه بصمت.
ـ أتمنى أن تكون الهدية أعجبتك.. أعلم أنه ليس من حقي أن أهديك إياها، لكن هل ستصدقينني إن أخبرتك أنني عندما رأيت الثوب في واجهة المحل لم أفكر إلا فيك؟ بهذه البساطة، فقط ذكرني بك.. بابتسامتك البيضاء وعينيك الذهبيتين.. كاد ينطق: أنا لنورا.. فلم أستطع تجاهله.
تجمعت الدموع في حلقي، هدأتها بصعوبة لأهمس بعد فترة:
ـ شكرًا.
أطلق زفرة حارة أحسست كأنها تلمسني..
ـ نورا..
همس، فأسرعت أغلق الخط، وأخبئ وجهي بيدين مرتعشتين، أدركت أكثر من أي وقت مضى أن بعض الأحلام لا ينبغي تحقيقها.. من الأفضل أن تظل أحلامًا.

* * *

لا أعرف إن كان مجرد تذكري لكل هذا ذنب كبير أم لا، ست سنوات أعيش في العالم الجديد، أتبع القواعد، لا أعاقب طفليّ، لا أهدر في الأكل والشرب والملابس، لا أتغيب يومًا عن عملي، لا أؤخر مصلحة لشخص يلجأ إليّ، لا أدّعي، لا أكذب، لا أتحدث إلا مع قلائل، كنت أفعل كل هذا وهو في داخلي، ما زال داخلي.. كفارتي أم ذنبي؟ لا أدري!
لا أعرف على وجه اليقين بعد كل ما حدث ما هو الذنب الحقيقي، ذاك الذي يتملكنا دون قصد، أم تلك الأفعال المؤذية التي يميزها الكل وينكرها؟ وهل أصير ملاكا فقط لأنني لا أفعلها؟ أيَصير أيٌ منا ملاكا؟
لا أدري، ولا أتوقف عن التفكير، أخشى من ذنوب خفيّة وعقاب قد أناله فلا أفهمه.
القي كل توتري وحذري ما إن أخلو بنفسي بعيدًا عن البشر، وحدي أناجي الله، أدعوه بأن أصل إليه أو أنسى، وأعرف أنني لا أريد أن أنسى..
أعرف أنه يعلم ما في نفسي، فأبكي..
وأعرف أنه رغم العالم المذعور بالخارج، لا يوجد أرحم منه ألجأ إليه.

٥

«أكد خبراء الأرصاد الجوية أن ظاهرة تآكل الشواطئ ليست بجديدة وتحدث في كل المدن الساحلية، كما أن الحواجز الخرسانية التي بدأت الحكومة في وضعها، ستقلل مقدار الخسائر، أما الحكومة نفسها فنفت تمامًا ما تردد عن أن الإسكندرية تغرق، مؤكدة أن غرق بعض العِزب والشوارع الصغيرة ليس مقياسًا حقيقيًا، وطمأنت الأهالي والتجار بأن الوضع مستقر».

أشار صديقي لشاشة التلفاز في المقهى الأنيق الذي التقينا فيه، وعلق بسخرية:

ـ الوضع مستقر تمامًا! حتى خبر الزلزال المدمر الذي وقع منذ أسابيع في اليابان، ممنوع أن نستضيف الخبراء، لتأكيدهم أنه سيؤثر على منطقتنا في المستقبل القريب! البلد يغرق حرفيًا ولا أحد يتحرك، وانسَ طبعًا أن يستعدوا لمواجهة كارثة محتملة كأي دولة تحترم شعبها، فليمُت الجميع بصمت وسلام!

انفجرتْ بغضب:

ـ والمجنونة أخذت زينة وعادت لتعيش في بيتها القديم بالإسكندرية! كل الناس يتركونها الآن وهي تذهب إليها! إن أرادت أن تموت هناك فلتترك لي ابنتي ولا تأخذها!

ـ تقصد جدتها لأمها؟

ـ ومن غيرها؟! سأسافر لها وأعيد زينة معي بالقوة، لن أقطع هذا الطريق أسبوعيًا لأرى ابنتي! تعلم أنني أكره السفر والطرق الطويلة!

ضحك متهكمًا:

ـ طبعًا أعرف، ألا تذكر فعلتك السوداء في طريق الصعيد؟

ضحكت بدوري دون مرح، أخذني حماس الشباب، وحماس أمي أيضًا، في إحدى الإجازات في أثناء دراستي في أمريكا، لأن أخطب. أعجبتني الفكرة، بخاصة مع تعلقي القديم بأخت زميل لي أيام الثانوية، كانا يعيشان أيام الدراسة في القاهرة ويعودان لقريتهما في نجع حمادي في الإجازات. لم أنس تلك التجربة أبدًا.. لم أنس الطريق الذي قررت بتهور أن أقطعه لأقابل والدها، الصحراء.. الظلام.. الطريق الذي لا ينتهي، والجبال التي تكاد تتحرك لتطبق عليّ وأنا أمر بينها، سألت نفسي ألف مرة يومها؛ ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أي حماقة، أي غباء، جعلني أقطع هذه المسافة بسيارتي متجهًا لأبعد محافظات الصعيد لأمر لا يستحق كل هذه المشقة!

وعندما بلغت أول قرية مأهولة انتظرت في سيارتي حتى حل الصباح وعدتْ أدراجي دون أن أكمل الطريق، حتى لو تبقت مجرد ساعتين وأصل لوجهتي.. زهدتْ في الأمر كله.. كرهته..

وكرهت الفتاة.. عدتُ لاستكمال دراستي في أمريكا دون ندم، بقيت معي فقط كوابيس الصحراء المظلمة والمستطيلات التي لا تنتهي.. بقى معي إحساس الوحدة في الطريق.
كان عمي من تكفل بتلك المصاريف الدراسية الباهظة، لطالما صدقت أنه جارَ على نصيب أبي في الميراث، وإلا كيف كوّن تلك الإمبراطورية من المال وظل أبي مجرد موظف في مصانع أخيه، لا يملك سوى راتبه؟
لذا لم أتردد أو أشعر بالذنب وأنا أطلب من عمي أن أحذو حذو ابنه ماجد وأدرس في أمريكا، ولم يرفض رغم المشكلات التي أعرف أن زوجته ستثيرها، واتهامها الدائم لنا بالطمع فيهم.
حاولت كثيرًا إقناع أبي بترك هذا المنزل لكنه لم يوافق أبدًا، حتى مع أفعال زوجة عمي المهينة، أذكر جيدًا حينما كانت تتصل بأمي كل بضعة أشهر وتطلب منها النزول لها لتعطيها حقيبة ملابس مستعملة لياسين! كأننا في حاجة لها! لم أفهم أبدًا كيف كانت أمي تستوعب الإهانة وتأخذ الحقيبة وهي تشكرها بأدب ولطف، ثم توزع تلك الملابس على من يحتاجها حقًا.
لم أندم على شيء في حياتي غير تلبيتي لرغبتهما في ترك أمريكا والعودة للعمل في بلدي، فأين والداي الآن وأين الوطن؟
عندما علمت بحقيقة مرض عمي، انتابتني مشاعر مختلفة، لم أفهم أيًا منها، ماض قديم بيننا، بينه وبين أبي، لطالما برّأ أبي ساحة أخيه، وأنكر كل ادعاء بأنه ظلمه في الميراث، فلماذا لم أصدّقه؟
زرت عمي كالعادة لأطمأن عليه، أحبطني عدم رؤية نورا عند دخولي، الخادمة من فتحت لي وقدمت القهوة، لم ألمح نورا أبدًا، منذ أن أعطيتها الهدية لم ألمح ظلها، هل أخفتها؟ ألم تعد تثق بي؟ وزاد ضيقي عندما باغتني عمي دون مناسبة:
ـ فاتن بنت حلال وأصيلة.
رمقته دون تعليق.
ـ أنت بحاجة لامرأة.. وفاتن تناسبك، اسمع مني.
التوت ابتسامة على فمي:
ـ لا أفهم ما مناسبة هذا الموضوع الآن، لكن سامحني يا عمي، لا أظنك تعرفني جيدًا لتحكم بما يناسبني وما لا يناسبني.
حدجني بنظرة صارمة ذكرتني بأبي، وقال:
ـ بل أعرفك أكثر مما تتخيل، جريت وتزوجت زوجتك هذه دون أن تستمع لأي نصيحة، لم ترَ سوى جمالها.. هوب، أعجبتك.. هوب، تزوجتها! في الزواج يا بني الجمال ليس كل شيء، أظنك تعلمت هذا الدرس.
نهضت واقفًا:
ـ لا بأس.. لا أريد أن نتجادل في هذا الآن، سأتركك لتستريح.
أصرّ بحزم:

ـ إذن لا تعشم البنت، لا تبدأ طريقا لن تكمله يا زياد، دائمًا ما تتراجع في منتصف الطريق، ولا تنهي ما بدأته.
عرفت ما يشير إليه، هممت بالرد، لكن طرقة صغيرة على الباب جعلتني أتطلع إليه لا إراديًا بأمل، كسره دخول أم فتحي بكوب يانسون لعمي، تشتّث، نسيث ما أود قوله من الإحباط، أخفيت ضيقي لأنظر نحوه وأقول:
ـ سأذهب.. انتبه لصحتك جيدًا.
كان العجوز ينظر لي بثبات كأنه يقرأ أفكاري، وردّ بعد وهلة بهدوء:
ـ إن شاء الل-ه.
انصرفت تصلني بوضوح موجات القلق التي أطلقها نحوي..
لا تقرب نورا فتكون من الظالمين!
إنها محرمة عليك! تخص ياسين الغالي، ولم يرمها بعد لتحصل عليها!
لكن فاتن.. فاتن مناسبة لك! فقيرة وضيعة مثلك!
كل أفعالهم وكلامهم يفضح نواياهم، هذا الإصرار على إبعاد نورا عني أكثر إغراءً من أي شيء..
أهذا ما شعر به آدم؟ هذا الحرمان المغوي بفعل أي شيء لإنهائه؟
خرجت للشرفة أعبّ اللفحات الباردة في صدري، اتجه بصري للزرع الذي ترعرع على استحياء في زاوية من الحديقة المقفرة، ناعم.. طازج.. بريء، كم يشبهها!
شيء في الطبيعة يذكرني بها، في نضرة العشب، ودفء الشمس، إنه الإغواء الكبير بالتخلص من كل شيء.. والارتماء في أحضانها.
لماذا أقاوم انجذابي لها؟ فهي ليست زوجة سعيدة وراضية سأسرقها من زوجها، بل فتاة تعسة الحظ تورطت في زيجة لمساعدة أهلها، فما الخطأ الذي أقوم به إن انسقث وراء هذه المشاعر؟
المشكلة.. كل المشكلة أن العائق الأكبر بيني وبينها، هي نفسها.
* * *
بعد أيام قليلة التقيت بعلاء، كنت أغادر منزل عمي بعد زيارتي المعتادة، فسألته مازحًا:
ـ ما أخبار الثورة الجديدة؟
كنت أتابع باهتمام أنكره أخبار الانتخابات القريبة وحركة الأحزاب، دون أن أعرف لماذا لا أنسى هذا الشغف القديم.
ضحك الشاب وقال:
ـ عظيمة، لا تقلق، سنكتسح إن شاء الل-ه، آن الأوان يا زياد..
لا بد أن يأتي أواننا، كما قالت نورا؛ النصر أو نهاية الكون!
أخفيت انزعاجي بضحكة قصيرة هازئة:
ـ إنها مجرد انتخابات!

ـ لا ليست «مجرد» انتخابات! إنها معركة وسننتصر.
ـ كدت أنسى معنى النصر، فلم يعد يناله أحد.
رمقني بجدية قائلاً:
ـ ما دامت لدينا الإرادة والقوة سننتصر، لن يخذلنا الل-ه، أعرف أنك تظنه مجرد كلام، لكننا لا ننتظر ملائكة لتحارب معنا، سننتزع النصر بأيدينا، ما دمنا مؤمنين به.
صمتُ لحظة.. رأيت فيه صديقًا قديمًا، نفس الحماس والإخلاص.. ثم قلت:
ـ أتمنى ذلك يا علاء.
وربتُّ على كتفه مشجعًا قبل أن أذهب، أتمنى ألا يُكتب له نفس المصير.
لكنه خسر، هو وكل أصدقائه المتفائلين خسروا، حتى تيار الأفعى ثريا خسر فجنّ جنونها، دفعت لهم الكثير، ويبدو أنهم وعدوها بسلطة ما. وصل صراخها لشقتي، فاتن تحاول تهدئتها، فينالها السبّ والشتم بدورها. قلقتُ على نورا، أشتاقها بجنون، لكنها تتجنبني، كأنها تبخرت من المنزل كله، ترددتُ ثم أرسلت لرقمها شعرًا أدري أنها تحبه، أشعر كم تتأثر به؛ كيف تلمع عيناها الذهبيتان، تعض شفتها السفلى قليلاً بشرود، وتسافر مع الكلمات.
«أنا العاشق السيء الحظ
لا أستطيع الذهاب إليك،
ولا أستطيع الرجوع إليّ
تمرد قلبي عليّ»
تجاهلتْ كل التعقل وأرسلته لها، رأت رسالتي ولم ترد، كنت أعرف أنها لن ترد، لكن لم أستطع المقاومة، وبعد لحظات وجدتني أكتب لها رسالة طويلة لم أتوقع يومًا أنني سأبوح بها لمخلوق.
«أعلم أنك لا تريدين التحدث معي، لكن الغريب أنني لا أفكر في التحدث إلا معك، أنا محبط يا نورا، نعم قلت إنني لم أعد أهتم، فلم أتوقع أن يخيب أملي في البلد وناسه مجددًا، منذ نتيجة الانتخابات وأنا أمشي في الشارع أشعر أنني أكره الجميع.. أكره غباءهم وجبنهم ورفضهم للتغيير، أفكر أنني كنت محقًا في توقفي عن الأنشطة الخيرية وتقديم أي مساعدة لهم، كنت عضوًا نشطًا ذات يوم، كنت أهتم كثيرًا بأحوال البلاد، وكيف لا أهتم ونحن جيل تربى على أخبار شهداء الانتفاضة الفلسطينية، عاصر حرب الخليج؛ ووقف حائرًا يفهم للمرة الأولى بشكل مختلف الآية التي أصبحت تتردد بكثرة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
جيل ظل يحلم ببطولته الخاصة، ويعيش في مياه راكدة يخبرونه دومًا أنها الأأمن والأفضل.
شيء ما في صدورنا رفض أن نكون مجرد طيور مدجنة أخرى، شيء ما أجج رغبتنا في الخروج من المياه الراكدة. حتى خططتُ أنا ومجموعة من الأصدقاء لعدة مشاريع خيرية وخدمية.
الدكتور مدحت كان أحد أصدقائنا حينها؛ طبيب شاب متحمس، أخذ يحدثنا عن أن معدل

الأطباء في مصر تقريبًا ٠.٧ طبيب ـ أي أقل من طبيب واحد ـ لكل ١٠٠٠ من السكان، بينما المعدل في الدول المتقدمة ٣ أطباء لكل ١٠٠٠ من السكان، وإحصاءات عديدة أخرى لا أذكرها.
شرح لنا فكرة العيادات المتنقلة في المناطق الفقيرة والقرى النائية، كنت عائدًا من أمريكا بعد انتهاء دراستي، والحماس يملأني لأحقق شيئا من التطور لبلدنا، بحثنا عن تمويل بشتى السبل، عمي معتز ساهم معنا لفترة لكنه لم يكمل، خشي على أرباحه أو جره للسياسة، كنا قبل ثورة يناير والسياسة وقتها مستنقع خطير، قد يُفقده كل ثورته، تخلى عنا بعد فترة قصيرة هو وغيره، لكنني لم أتوقف بسبب هذا.. توقفت بسبب مدحت؛ الدكتور مدحت.. الذي كان من أوائل الداعين للثورة.. ومن أوائل المعتصمين في الميدان، كنت أذهب للميدان يوميًا معه يا نورا، لا أذكر هذا عادة.. لكنني أريد أن أخبرك أنت فقط.
(وحدها المياه الراكدة تقذف بحجر..
اخلق دوامات وجودك..
اصعد بأمواجك الهادرة واترك أثرك..
لا تنتظر أن ترمى بحجر).
لطالما تركت فيّ كلمات صديقي أعظم أثر، لم يعد بمقدرونا أن نستمر في تلقي الضربات باستكانة وخنوع، تغيّرنا.. أسكرتنا نشوة الحماس والتفاؤل، نهتف، نثور، نجري، ننزف.. ننتشي.. نحيا، نساعد فيما سُمي وقتها بالمستشفيات الميدانية، أي مساعدة مطلوبة حتى لو لم أكن طبيبًا، فقط مبادئ أولية، أما هو؛ تولى معالجة الحالات الطارئة للمصابين، يطهر الجروح ويخيط الجلد الممزق، يرش الخميرة في الوجوه لمقاومة تأثير قنابل الغاز، حتى تلقى خرطوشًا في إحدى عينيه وأظلم نصف الحياة أمامه، لكنه لم ييأس، استمرينا في طريقنا وقمنا بحملات لتوعية الناس سياسيًا، تنقلت معه من حارة لأخرى ومن قرية لعزبة صغيرة، ننشر الوعي.. الحرية.. نحارب القمع والخنوع، لكن الحرب لم تكن شريفة؛ طاردت الجميع حملات التشوية والاتهام بالخيانة والعمالة، هجم علينا أهل قرية في نهاية المطاف وتشاجروا معنا، ببساطة قتلوه.. ضربة عشوائية على رأسه قتلته وأخذته من عالمنا الكريه وناسه الذين لا يستحقون الكرامة والحرية، لا أظنك جربت من قبل الشعور بالتسبب في قتل شخص ما، سألني يومها قبل أن نذهب إن كان هناك أمل فكذبت وقلت نعم، ادّعيت التفاؤل لأنني لم أشأ تخييب أمله وإخباره أن عينه ذهبت سدى، كذبت عليه فقتل، لأسأل نفسي كل يوم بعدها ماذا لو كنت أخبرته الحقيقة؟ أنه ليس هناك أمل، إن لم نخرج هذا اليوم، إن كان من العدل أن أموت معه؟
كنا مغرومين بالوطن.. واهمين بالحرية.. موجوعين بالاستبداد، تنكر الوطن.. اختنقت الحرية، وبقي الاستبداد.
تذكرت كل هذا وأنا أرى النتائج الجديدة.. النتائج التي لا تتغير حتى بعد مرور عشرة أعوام على ثورة يناير، اختار الناس الشيطان الذي يعرفونه، ككل مرة يتعرضون فيها للاختيار،

وطردوا أي ملاك يقترب.
ليجني علاء ومن هم مثله مصير آلاف الشباب خلف جدران السجون.
أنا آسف، أزعجتك بتفاصيل وحكايات لا دخل لك بها، لكنني ما زلت أحاول أن أفهم لماذا أشعر بك قريبة مني لهذا الحد؟ لماذا يزيح الكلام معك كل هذا الضيق من صدري.. سامحيني».
كنت أريد ردًا هذه المرة، أريده بشدة، فتحت الرسالة، قرأتها، وانتظرتْ، لم أكن وحدي الذي يبدأ طريقا لا يكمله، البلد، الدنيا كلها، تائهة في منتصف طريق لا نهاية له. كنت أريدها أن تكون علامتي.. طريقي، كنت أريد منها كل شيء، لكنها كالعادة لم تمنحني أي شيء.
تفجر الوضع كله بوفاة عمي، وعاد ماجد وياسين، زوج نورا عاد، واضطررت إلى أن أكسر حاجز البرودة وأخفي العداء بيننا بسبب الظرف الحزين، بل إنني من تولى القسم الأكبر من الإجراءات لكوني الأكثر خبرة ودراية بالبلد، أنا وعلاء الذي كان شديد الحزن على زوج خالته. انضممنا لهم في شقتهم في ختام يوم العزاء.
ثريا هادئة كأنها تشاهد فيلمًا مملاً، فاتن متماسكة محمرة العينين، أما نورا فكانت كالمتوقع الأكثر حزنا وتأثرًا بين الجميع، دموعها الصامتة لا تتوقف. اتجه ياسين نحوها متنهدًا بحزن وأحاط كتفيها بذراعه مواسيًا، همس لها بكلمات لم أتبينها، كانت مطرقة.. هزت رأسها فقط دون أن تقول شيئا، فشد ذراعه حولها أكثر.
تصاعدت ألسنة نارية في معدتي، مرت على قلبي وسرت في دمائي، كان يسرني كثيرًا أن أراه قاسيًا معها غير مبالٍ.. لا يطيقها! لا أن يهتم بمواساتها، وربما وعدها بتعويض حار آخر الليل!
شعرت بالاختناق ووقفت فجأة، لماذا تنظر لي تلك الحيّة العجوز هذه النظرة؟ كم أكرههم.. وأولهم نورا!
ـ سأعود لشقتي.. إن احتجتم لشيء كلموني على الفور.
نهض علاء بدوره وقال:
ـ وأنا أيضًا عليّ أن أذهب، سأعود غدًا في الصباح لاستقبال بقية المعزين.
قالت ثريا:
ـ لا تتأخر، وأخبر أمك أنه ليس من الأصول أن تغادر مبكرة هكذا كالغرباء، كأننا لسنا أختين!
ـ غصب عنها واللـه يا خالتي، لو لم تنس «الأنسولين» لبقيت، لكن السكري عندها غير مستقر كما تعلمين، فأصررتْ أن تذهب، ستعود معي في الصباح بإذن اللـه.
لوت ثريا شفتيها وقالت:
ـ سنرى.
كان ماجد منشغلاً بالحديث عبر الهاتف مع زوجته، التي لم تحضر معه هي والطفلين، ورد ياسين ممتنًا دون أن يبعد يده عن نورا:
ـ شكرًا جزيلاً لكما، زياد وعلاء، لا أدري ماذا كنا سنفعل من دونكما.

ماذا لو ضربته الآن؟ ماذا سيحدث؟
ابتلعت أفكاري بصعوبة وقلت باقتضاب:
ـ لا شكر على واجب.. عن إذنكم.
لماذا لا ترفع وجهها إليّ؟ كنت أريدها فقط أن ترى نظرتي المحتقرة لها.. أريد أن أسددها مباشرة لعينيها الواسعتين!
ـ هيا يا زياد.
وجدت علاء يستحثني، فأجبرت نفسي على التحرك، وما إن صرنا بالخارج حتى توقف كأنه سيقول لي شيئا، بدا الكلام على وجهه، ثم قال فجأة كأنه تراجع:
ـ انتبه لنفسك، وإن أردت تغيير الجو أو الخروج في أي وقت كلمني.
أومأت برأسي متمتمًا «إن شاء الله» وسار كل منا لبيته.
ماذا لاحظ؟ وماذا كان سيقول؟ هل انتبه للغضب العنيف الذي يموج داخلي؟ فهذا كل ما أشعر به الآن، أتمنى لو أخنقها بيدي!
بالطبع لم أكن أحبها!
كان مجرد انجذاب ممتزج بأسباب معقدة ومتعددة؛ ربما لأنها تخص ياسين ليس أكثر! لكنني لن أضيع وقتي معها أكثر من ذلك، فما أكثر النساء الراغبات.. واولاهن فاتن! لكنني لم أكن أطيق رؤيتها أيضًا.
ليومين استطعت التهرب من أسرة عمي بكاملها، لكن في مساء اليوم الثاني صعد لي ياسين وأصرّ أن أنضم إليهم ليتشاورا في بعض الأمور، فاضطررت إلى الموافقة.
أدخلني ياسين غرفة مكتب عمي التي أمضيت فيها أمسيات رائعة، باختلاف أن ماجد كان هو من يجلس خلف طاولة المكتب وأمامه العديد من الملفات.
كان ماجد يكبرني بخمس سنوات، فلم يكن هناك مجال قوي للتنافس أو الود بيننا، وحياته البعيدة في أمريكا جعلته غريبًا حتى عن أهله.
مضت ساعة وهما يأخذان رأيي ويتشاوران معي في أمور تتعلق بالمصانع والشركات، الميراث كما خمنت من قبل، كنت مصدر ثقة لهما لسبب غير معلوم، ربما لمدح عمي فيّ، كما أنني الأكثر خبرة بخصوص الإجراءات والخطوات الواجب فعلها، ليتأكدا أن المحامي لا يتلاعب بهما.
فاجأني شعور مباغت بالحنين وأنا أرى متعلقات عمي في الغرفة، هاتفه المحمول الذي لم يكن يتوقف عن الرنين، ولاعة سجائره الأثيرة في أحد الأركان، قلم فضي كان المفضل لديه، خطّ به ماجد بضعة سطور ورماه بلا مبالاة على سطح المكتب، أوجعني أن أرى ما بقي من عمي دونه.. وأوجعني أكثر أن أدرك أنني أفتقده.
ظننت أنني لا أحتاج الحزن عليه، لم أمهل نفسي وقتًا للأسى.. للبكاء عليه، وهو الذي كان أبًا ثانيًا لي طوال حياتي، أردت أن أجنب قلبي مزيدًا من الألم، حتى اكتشفت وأنا أرمق ذكراه في كل ركن من الحجرة؛ أن الحزن ليس دائمًا يشقينا، بل الشقاء أحيانا.. ألا نحزن.

عندما انتهينا أخيرًا ومررنا بالصالة، رأيت النساء الثلاث مجتمعات، نورا وفاتن وزوجة عمي، دعاني ياسين ببساطة:
ـ ابق معنا، لا داعي لأن تبقى وحدك وكلنا هنا.
اختلست نظرة تجاه نورا، لم أحتج لأكثر من نظرة لأدرك أنها تفكر في حجة للهرب، لكن طفلها كان يحبو سعيدًا وينتقل بينها وبين جدته وفاتن، قبلت الدعوة وجلست جوار فاتن حافظا دوري.
سرعان ما تركنا ماجد كي يكلم زوجته كالعادة، لتعلق ثريا هازئة:
ـ العقربة! تريد أن تطمئن على الإرث! تتصل كل ساعة لتعرف كم أصبح نصيبه الآن! ملعونة!
لم يعلق أحدهم كأنهم معتادون على هذا الحديث، جلس ياسين بين نورا وأمه يلاعب ابنه، ومارست فاتن دورها المعتاد في الالتصاق بي والثرثرة، فتظاهرت بمتابعتها، لم تتسن لي الفرصة لأفكر في أمر الشخص الغامض الذي طارد نورا بعد كل ما حدث، كان الوغد يعرف اسمي وصلتي وتفاصيل كثيرة أذهلتني وجعلتني أقدّر رعب نورا من اتصالاته، لم تبد لي أي احتمالات منطقية غير أن فاتن هي من وراء كل هذا، ومع ذلك بدا الأمر غير مُلحٍّ الآن وأنا أراقب ياسين وأفكر في وجوده الغريب.. يتصرف كأنه زوج وأب طبيعي تمامًا! أهذا ما يجعل نورا ترضى بوضعها الشاذ بعيدًا عنه؟ أيمكن أن تكون مغرمة به؟
أخذت أرمقها كلما سنحت الفرصة حتى التقطت نظرتها الذهبية المرتعشة قبل أن تبعدها عني ثانية، تباطأت خفقات قلبي وسرت الدماء حارة في جسدي، أي عدل في هذا العالم يحرمني من رؤيتها كلما رغبت؟
وددت لو أهزها بقوة أسألها هل تحب ياسين أم لا! تحب رجلاً لا يراها بما يكفي.. لا يشتهيها كما تستحق؟
لكن لن أفعل لأنني أكرهها! لا يهمني إن كانت ستستمر في هذا الزواج الفاشل لأجل المال أم لا، فعلاً لا يهمني!
نهضت فجأة:
ـ سأنصرف الآن، كان يومًا مرهقًا في العمل.. تصبحون على خير.
هتفت فاتن محبطة:
ـ بهذه السرعة؟
ـ سأراك قريبًا بالتأكيد.
تهلل وجهها وقالت:
ـ سأوصلك للباب.. تفضل.
وحينما تجاوزنا باب المنزل جذبتها قليلاً تجاهي:
ـ ما رأيك أن نكمل سهرتنا وحدنا بعيدًا عن الزحام هنا؟
اضطربت بوضوح وسألت بريبة:
ـ تقصد أين؟

ترددتْ لحظة ثم قررت أن أجرب حظي، لعلي ألهي تفكيري وجسدي بأي شيء.. لعلي لا أفكر أصلاً.
ـ في شقتي.
رمقتني بصمت ثم قالت بحزن هادئ:
ـ هل كانت تصرفاتي رخيصة لهذا الحد؟!
نعم! لكن فضلت عدم مصارحتها.. هي تعرف وحدها، كما أعرف أنني سأتلقى محاضرة الآن.
ـ قلبي كان يخبرني أنك تتلاعب بي لكنني تمسكت بأمل خائب ضعيف.. لعل وعسى تعجب بي بحق وينهي كل منا وحدة الآخر.. لكن في الحلال! في الحلال يا أستاذ زياد!
رددتْ بابتسامة باردة:
ـ للأسف لم أفكر في هذا الأمر.
يبدو أنني استفززتها، فردت بعينين حادتين:
ـ أعرف فيم تفكر! كان مجرد شك في البداية، لكن ما إن أتى ياسين.. ما إن رأيتها معه وأنت لا تستطيع تمالك نفسك! نظراتك تفضحك! لا تقلق لن أخبرها شيئا لأنني أحبها.. لأنها محترمة ولا أريدها أن تفكر بك ولو بسوء!
ها قد منحتها فرصة حياتها لتبدو شريفة ومخلصة في نفس الوقت. حدجتها بازدراء:
ـ لا يهمني ما قلته لأنه أوهام.. تصبحين على خير يا فاتن، كان خطئي من البداية.
وصعدت لشقتي دون أن أنظر للوراء.

* * *

«أنت لست لي
ولكني احبك..
ما زلت أحبك
وحنيني إليك يقتلني
وكرامتي تمنعني..
وكل شيء يحول بيني وبينك»
نظرت لكتاب محمود درويش الذي رافقني منذ أمسيتي الأولى معها، لم أدر يومها أنه سيخطّ أقداري بهذه الدقة والألم، وأن حروفه المتراصة ستحكي أوجاعي كأنها كتبت خصوصًا لي، تنذرني من البداية بأن ما بدأ فضولاً سيتحول لعذاب مستعر؛ يضني حياتي بأكملها، لكنني لم أستمع.
مجرد كتاب أصبح فجأة ذكرى ثمينة من عمي؛ وقبسًا دافئًا من ليالٍ تبدو الآن كأنها من ألف سنة ضوئية.
أتاني اتصال غريب من زوجة عمي ذات ليلة، تدعوني للعشاء معها في مبادرة مريبة، هل أخبرتها فاتن بحديثنا الأخير؟ هل ستلومني وتوبخني وتتهمني باللعب بقلوب بنات الناس؟
دفعني الفضول لتلبية الدعوة، فتحت لي الخادمة وقادتني إلى حيث تجلس ثريا أمام

كمبيوتر حديث وفي أذنيها سماعات، تستمع بنشوة لشيء ما لم أتبينه، كذبت ما تسلل لسمعي من موسيقى صاخبة، استغربت هيئتها المختلفة؛ بألوان ملابسها المشرقة، ووجهها الملطخ بالأصباغ، وإيشارب غير مثبت جيدًا على شعرها المصبوغ بلون أصفر مزعج.
هممت بأن أتجه لحمزة الذي يلهو قربها بألعابه، وعلى طاولة قريبة أطباق طعام متعددة، لكنها التفتت لي بابتسامة جانبية تقول بودّ لزج ونظرة ثعبانية:
ـ أهلاً يا حبيبي، كنت أقعد وحدي فقلت تنزل تقعد معي وتؤنس وحدتي، ماجد سافر للعقربة زوجته، وياسين ونورا يختفيان طوال اليوم في غرفتهما ويتركان لي الولد، يعوضان فترة البعد والحرمان، تفهم قصدي.. هههههه، لكن ياسين يقول إنه سيأخذها معه إلى تركيا قريبًا، لم يعد يطيق فراقها.. ربنا يهدّئ سرهما، اقعد يا حبيبي.
شعرت بدلو ماء مثلج يرتطم بوجهي.. الحيّة العجوز الماكرة! لم أتخيل أن يصل بها التدني لأدنى درجاته.. أن تعرف أين مقتلي لهذا الحد!
أأخنقها؟ ما الذي يمنعني؟ سيرتاح عدد كبير من البشر باختفاء هذه العجوز السامة من على وجه الأرض!
لفترة طويلة بعدها لم أدرِ كيف انصرفت يومها دون أن أرتكب جريمة.
مرت أيام بعد سفر ياسين دون أن أرى نورا، الزوج البعيد.. الشبح الغائب أصبح واقعًا حقيقيًا ويريد أخذها معه!
كنت أخشى أن أراها.. أكره أن أراها.. كانت صفحة مطوية في حياتي لا أكثر.
لم أتوقع أن أجدها وأنا في طريقي للخارج، عائدة من الحديقة بإسدال وردي جميل وفي يدها سلة صغيرة مليئة بأعواد النعناع والريحان،
لم أستطع تجاهلها، لم أستطع إلا أن أتوقف ونظراتي مسددة نحوها ثابتة كالسهام.. فتوقفت.. نظرتْ لي، ارتبكت وانتظرتْ أن أبتعد من طريقها لتمر لكنني لم أتحرك.
ما حقيقة تلك المرأة؟ أهي حقًا تلك الفتاة المخلصة الوفيّة التي خدمت عمي بتفانٍ وحب، تتألم لألمه وتخفي دموعها بابتسامة لتمنحه أملاً في الشفاء حتى آخر لحظة؟ كنت أراها دائمًا معه في أيامه الأخيرة، أراها وأشعر أحيانًا أنها لا تنتبه لوجودي، كل اهتمامها ومشاعرها مع عمي المحتضر الذي تحبه أكثر مما يحبه ولداه.
هل هذه حقيقتها؟ أم هي تلك الفتاة المادية الخبيثة التي لا يهمها سوى زيادة رصيدها وبيع نفسها من أجل المال، وأنا فقط الأحمق الذي لا يصدق هذا؟!
ـ هل ستسافرين تركيا مع ياسين؟
سألتْ، لا أستطيع تمالك نفسي، ووتر ترددها أعصابي.. عدم نفيها الفوري!
نطقت أخيرًا بخفوت:
ـ احتمال.. هو يريد ذلك، لكننا لم نتفق بعد.
انفجرت:
ـ لا، بإذن اللـه تتفقان! ما دام يدفع لك ستتفقين معه بالتأكيد!

ومررت من جوارها كالعاصفة حتى كدت أصدمها.
ـ طلبت منه.. الطلاق.
ارتجّ كياني بقوة.. التفت إليها، وقبل أن أستجمع شتاتي تابعت بحزن وهي تبعد عينيها عني:
ـ لكنه ألحّ أن نعطي زواجنا فرصة لأجل ابننا حمزة، قال إنه تغير عما كان منذ عامين ويريد أن يجمع شمل أسرتنا من جديد. اعترف أنه تزوج في السر بفتاة تركية العام الماضي، وطلقها قبل أن يأتي بأسابيع قليلة.
ـ ماذا قلت له؟ ماذا ستفعلين؟!
ردت وهي ترتعش:
ـ قلت.. قلت له سأفكر.. لا أريد أن أظلم حمزة!
أمسكتها فجأة من ذراعيها بكلتا يديّ حتى وقعت السلة منها:
ـ وأنا؟ نحن! ألم تفكري بنا؟
تهربت من النظر إليّ:
ـ لا يوجد شيء بيننا يا زياد، ولا ينبغي أن يكون.
هززتها بقوة لتنظر لي.. بدت هشة على وشك أن تنكسر بين يدي.. وكنت أريد أن أكسرها.. أن أحطمها كالحطام داخلي..
حدقت في عينيها.. بدا ذهبهما صافيًا لامعًا بدموعها.. واختنقت غصة في صدري، تهدج صوتي أهمس قريبًا من وجهها:
ـ أكرهك من كل قلبي يا نورا.. أكرهك.. بجنون!
انهمرت دموع عينيها المثبتتين في عيني.. وتفتت شيءٌ بقلبي؛ أشم رائحة الريحان العالقة فيها.. يصل لي أريج الزهور المنثور على عنقها الناعم وتخبئه ملابسها..
لوهلة لم أستطع الابتعاد.. لماذا يمزقني تركها لهذا الحد وأنا لا أعني لها شيئا؟ لا تفكر فيّ أبدًا!
ما الذي جعلها الشيء الوحيد الذي يكسر إحساسي المضني بالوحدة.. بالشقاء؟! كيف احتوت وحشتي وغربتي؟ يلازمني دفء حضورها ويُشبع روحي!
أدركت أكثر من أي وقت مضى أن مشاعري نحوها ليست لأنها امرأة غيري، بل لأنها المرأة الوحيدة التي رأيت في عينيها الدفء والسكن.. والحياة.
تركتها فجأة وهرعت للخارج لا أرى أمامي.. لم أتخيل قبلاً أنني قد أتألم لهذا الحد.
* * *
ـ مَن؟ ماذا تقصد؟
لم أدرك أنني كنت نائمًا إلا عندما اخترق صوت الممرضة المألوف عالمي، فتحت عيني بسرعة، واعتدلت مكاني جالسًا بقليل من المساعدة، مر شهر آخر وبدأت ذاكرتي تتماسك، وكذلك عضلاتي، وإن كان الطريق ما زال طويلاً أمامي.
ـ أرى الحماس في عينيك، يبدو أنك تذكرت أشياء جديدة يا أستاذ زياد.

كانت سهير ذات الابتسامة الأمومية، أكثر من أرتاح لها من بين الممرضات، فهي أول من أخبرتها اسمي، ومقتطفات من ذكرياتي، كدت أقفز من السعادة حين تذكرت هويّتي أخيرًا، سعادة واهية انسحقت تحت ثقل بقية الذكريات، وازدادت رغبتي المحمومة في أن أعرف كيف وصلت إلى هنا.
أجبت باختصار وأنا مستغرق في استراجع الأحداث:
ـ نعم، ليس كل شيء، لكن بدأت الرؤية تتضح.
ـ ومن الأفعى إذن؟ هذيت ببضع كلمات، لم أميز منها سوى «الأفعى».
تصنعت الابتسام والنفور يملأني من ذكرى تلك المرأة:
ـ ليست شخصًا مهمًا.
أدركث أنني لا أريد التحدّث، فاطمأنث أنني لا أريد شيئا وغادرت، اعتصرتْ ذهني أكثر، منذ أسبوعين بتّ أرى بوضوح عمي وعلاء وثريا وماجد وياسين.. ونورا، أكاد أجن لأتذكر آخر ليلة لي معها، كانت معي.. أعرف هذا.. لكن لا أذكر ماذا حدث وكيف وصلث إلى هذه الحال.
علاء.. كان حضوره قويًا في ذاكرتي، لكن دون ملامح أو تفاصيل للمشهد.. أحاول أن أتذكر فتأتيني مشاهد متقطعة..
«لن نتراجع اليوم! هذا ما لم يتوقعه أحد!»
أغمضت عيني أحاول استكمال المشهد، لكنني رأيت نورا.. شعرت بها..
«أريد أن أنجو بقلبي بك.. لا تذهبي يا نورا.. ابقي معي.. أحتاجك..»
كانت معي، تقف بين ذراعي، لا يمكنني أن أنسى إحساسي بها..
«تبكين عشيقك يا فاجرة!»
دوى صوت ثريا في مشهد ضبابي، ضاق نفسي، لا، غير حقيقي.. لا يمكن أن يكون حقيقيًا.. لا أذكر!
أين أنت الآن يا نورا؟ وماذا حدث لك؟!

* * *

نظرت طويلاً للسماء، جالسًا في حديقة المستشفى الواسعة، المقلمة بفن وجمال أثارا السخرية في نفسي.
لماذا لا أشعر بأي تغيّر أو رهبة كما يشعرون، ولا أراهم سوى حفنة من المجانين؟ لا يهمني إن كان الكون اختل حقًا أم لا، لا يهمني فزعهم المستمر أو رحيلهم المفاجئ، كل ما أفكر فيه لماذا لست مثلهم، وما معنى كل هذا؟ ما الغرض من عدم موتي رغم كل ما أصابني؟ ما فائدة أن أحيا لأتألم ثم أموت لأحاسب على هذا الألم؟
كل تلك الحياة تغضبني، تقززني أكثر ألف مرة مما كنث من قبل، أتراني مجرد حلقة منسية على هامش الحياة، ثغرة قدرية لا مكان لها ولا نهاية، عبث.. مجرد عبث لا معنى له؟
اقترب مني عماد الممرض الشاب الذي رغم ابتسامته يزعجني ظهوره، لأنني أدرك أن وقت العذاب قد حان، وكنت في مرحلة محاولة الوقوف بثبات معتمدًا على عكازين، نجحت المرة

الماضية في الثبات لعشرين ثانية قبل أن أنهار، وتوقعت اليوم أن أفوق هذا الرقم، لكن رغم كل جهدي والعرق الذي غمرني لم أستطع الثبات لأكثر من خمس ثوان، حتى قال الطبيب بعبوس:
ـ غريبة، كنت أفضل المرة الماضية، لكن لا بأس، ربما ما زلت مرهقًا من المجهود، سنحقق نتائج أفضل المرة التالية.
غادرني الطبيب، وعدت لسريري بغضب مكبوت وعماد يساعدني برفق، قبل أن يقول مهونًا علي:
ـ لا تتعجل، فات الكثير ولم يبق إلا خطوات وتغادرنا، استغفر كثيرًا وستكون أفضل بأمر الل-ه.
ـ أفندم؟! أهذا ما تعلمتوه في معهد التمريض!
تفاجأ من حدتي، قبل أن يستعيد صفاء وجهه ويقول بعفوية:
ـ هذا ما تعلمناه في الدنيا، أتفهم أن كل ما تمر به الآن أصعب مما يمكن لأحد أن يتخيله، لستَ أول حالة تفيق من غيبوبة استمرت سنوات منذ الزلزال الكبير، والبعض لم يحقق التقدم الذي حققته، إنها معجزة أن تعود لهذا العالم مرة أخرى بعد كل هذه السنوات، معجزة واختبار، ويجب أن تصبر لتمر منه.
زفرت بنفاد صبر، ثم قلت:
ـ ما علينا، المهم.. أريد سجائر، لا تقل ممنوع التدخين في المستشفيات وهذا الكلام، أنا هنا منذ سنوات وأمامي فترة لا يعلمها إلا الل-ه!
لا بد أن يكون لي استثناء خاص.
هل امتقع وجهه؟ رمقته باستغراب حتى قال:
ـ السجائر ممنوعة في البلد كله وليس في المستشفيات فقط. أنت لا تعلم بالطبع، لكني لم أستطع منع نفسي من الصدمة، فلا يسأل عنها عاقل الآن!
ـ البلد كله؟! أتهزأ بي؟
ـ حاشا لل-ه، لكن تفاقم خطرها جعلها من المحرمات بفتوى رسمية. في البداية كان الأمر اختياريًا، لكن بشروط صارمة كي لا يتأذى الآخرون؛ المدخنون السلبيون كما تعلم، وكل شخص مسؤول عن نفسه. إلى أن كثرت حالات الوفيات بسبب وسائل التدخين المختلفة؛ سرطانات وأمراض الصدر المزمنة، بل إن ما أثار الذعر وفاة بعض الأشخاص وهم يدخنون فعلا! أستغفر الل-ه العظيم، الل-ه يرحمهم ويغفر لهم.
بقيت أنظر له؛ إنه إما يمزح وإما مجنون:
ـ السرطانات والأمراض تصيب الناس بسبب السجائر منذ عقود! لماذا هذا الفزع الهستيري الآن؟
ـ قلت لك؛ الناس تموت بسببها!
ـ الناس تموت لألف سبب وفي كل وقت! من يهتم؟!

نظر للسماء عبر الشرفة بنظرة لائمة مُعبّرة ولم يرد.
هل كل من سأقابلهم في حياتي منذ الآن سيتحدثون بنفس الطريقة، كأنهم مبرمجون على نفس البرنامج؟
زفرتْ:
ـ طيب، أريد منك خدمة لو سمح وقتك، خدمة غير محرمة كما أتمنى؛ سأعطيك اسم شخص وأريدك أن تحاول الوصول إليه أو معرفة أي معلومات عنه.
قال بلباقة:
ـ تحت أمرك بالتأكيد.
وأخرج هاتفه يسجل الاسم والمعلومات التي يمكن أن تساعده، أخذته منه أراجع ما كتب بعدما انتهى، فرمق يدي لوهلة بنظرة غريبة، قبل أن تعود ملامحه لطبيعتها وتعود ابتسامته وهو يعدني ببذل قصارى جهده، وينصرف.
نظرت ليدي متفحصًا، ففطنت لما لاحظه.. غبي! مجرد كدمة من التمارين، ما كل هذا القلق؟
مجنون آخر في القطيع، ملت بجذعي لأضغط زر استدعاء التمريض لأخبره أنني لا أريد منه شيئا، فوقع دورق الماء وتحطم، لتهرع ممرضة فزعة بعد ثوان:
ـ خير يا رب! ماذا حدث؟ آه.. لا مشكلة، الحمد لله.
سألتها بحدة:
ـ أين سهير؟ لم تظهر اليوم!
بهتت ثم قالت بتأثر:
ـ مرضت فجأة ولزمت الفراش، ادع لها!
ذهبت لتحضر أدوات التنظيف، وأنا لم أستوعب بعد.. حتى سهير! الوحيدة التي شعرت أنها مألوفة بينهم اختفت هي الأخرى! كانت قد بدأت تساعدني، أعطيتها اسمَي زينة ونورا لتبحث عنهما، كيف تختفي فجأة الآن؟! ولماذا لا يجد القدر غيري ليفسد حياته.. لماذا؟
لا أمل لي سوى أن يجد عماد صديقي الصحفي ذو اللحية الذي تذكرت اسمه أخيرًا، محسن.. محسن رجب، وأضاء في ذهني آخر لقاء لنا.
« ـ بغال متخلفون! انعطف يسارًا سنختبئ هنا».
هتف محسن ونحن نجري لاهثين من مجموعة تطاردنا بالعصي.
كنا قد غادرنا الكافيه المعروف بتقديمه للمشروبات الكحولية، بعد أن تناولث عدة زجاجات من البيرة لاحتواء غضبي من الحياة بأكملها، وتناول محسن قدحين من القهوة، لنفاجأ بهولاء البغال يطاردوننا فور خروجنا. كنت أعرفهم، بقايا تيار العزة الخاسر، والذي تحوّل للعنف في الشوارع، يطارد العاصين!
اختبأنا في مدخل مبنى غير مكتمل البناء، لبثنا صامتين لدقائق، حتى ابتعدت أصوات أقدامهم عنا.
ـ هل سيارتك بعيدة؟

قلتُ محاولاً التركيز:
ـ ليس كثيرًا، إن خلا الشارع منهم يمكننا الوصول إليها بسرعة.
ـ سأرى.
أخرج محسن رأسه بحذر، حتى تأكد من خلو الشارع منهم، فسارعنا لسيارتي وانطلقت بها بقوة والغضب يزداد بي:
ـ لا أصدق أنهم يطاردون الناس حقًا! كنت أظنها مبالغات في التلفاز أو في صفحات الإنترنت! الناس جنت.. جنت تمامًا!
تنهد محسن:
ـ عندما لا يلمس البعض وجود الله؛ يغتر للقيام بدوره، فيحاسب الناس ويعاقبهم بناء على حكمه الشخصي.
سكتنا طويلاً، ثم قلت دون أن أبعد عيني عن الطريق:
ـ أتظن أن الله تركنا؟ لم يعد يهتم بما يجري في هذه الدنيا، وتركنا وحدنا نتخبط دون هدى؟
ـ بيني وبينك؛ هذا نفس ما أشعر به، حتى لو كنتُ متيقنًا أن الله معنا كحقيقة راسخة لا جدال فيها، لكن في يقيني أيضًا أننا وحدنا، في نقطة ما صارت الأرض تأكل نفسها.. دول تأكل دولاً.. وشعوب تأكل بعضها، أهو اختبار؟ أم عقاب؟ أم ماذا يحدث بالضبط؟! كل من يريد شيئًا يفعله دون محاسبة، دون خوف! كل من يملك السلطة والنفوذ بالطبع.. آلهة العصر الحديث! يظلمون، يقتلون، يسرقون، ينهبون، ولا شيء يطولهم أبدًا! فكيف لشخص مظلوم محروم من العدل أن يشعر بوجود الله؟
ـ لا أدري، كما قلتَ البلد يتآكل.. الدنيا تتآكل، ولا أحد يهتم.. فلماذا نهتم نحن؟ من اهتموا وصدّقوا إيمانهم وذهبوا لبيت الله ماتوا! والداي لم يرجعا لي من هناك، كأني أعاقب على ذنب لا أعرفه، أنا أعاقب ومن يسفكون الدم ليل نهار لا شيء يمسهم!
ـ الله يرحمهما.. أشعر بك، لكن أتظن العدل أن يكون العقاب في الدنيا يا زياد؟ هؤلاء البغال الذين ضربونا يظنون أنهم يطبقون عدل الله؛ اثنان مثلنا يغادران مكانًا مليئًا بالخمور والنساء، فيعاقبان معًا، لا يهم إن كنت لم أشرب سوى قهوة بالداخل، لا بد من وجود ضحايا في أي عقاب بشري، لكن ألا تجد في الفكرة نفسها كفرًا بالله؟ يريدون أن يوقعوا العقاب بأنفسهم في الدنيا دون انتظار حساب الآخرة، كأنهم لا يثقون في وجودها.
ابتسمتُ هازئًا:
ـ لو كان ثمة عدل باقٍ لاحترق هؤلاء المجانين أول الناس!
انطلق محسن يضحك مفرغًا توتره من الموقف، وتشاركنا الصمت حتى وصل منزله.
ترى هل بقي منزله مكانه؟ أم تهدم بجملة ما انهار في البلد كله كما يقولون، منذ يوم الموت الذي يتحاكون عنه حتى الآن، ويسمونه رسميًا بالزلزال الكبير.

٦

«ـ كثير من علماء وأطباء النفس يرجحون أن فكرة الكارما التي نشطت فجأة، أو العقوبات الإلهية الفورية؛ مجرد وهم، وهم صُنع بإيحاء جماعي بعد الزلزال الكبير الذي ضرب دولا عدة في نفس الوقت، فظن أغلب الناس في مختلف بقاع العالم أنه عقاب إلهي وغضب من الل-ه على الأرض، ما هيّأهم نفسيًا للعقاب فور ارتكاب الذنب.. أي ذنب.

ـ ألهذا الحد يا دكتور؟ هل يمكن للإنسان أن يصنع وهمًا بهذا الحجم والتأثير؟ الكدمات الزرقاء الآن تثير فزع أي إنسان، وغالبًا ما يموت بعدها بفترة قصيرة.

ـ وهذا بالضبط ما أعنيه.. دور الإيحاء النفسي، كل ما تغير منذ ست سنوات أن البعض كان يظن المصائب والابتلاءات التي تحدث للآخرين تصيبهم لأنهم ظلمونا أو اعتدوا على حقوقنا، الآن أصبح (الآخرون) أيضًا يؤمنون بأن السوء سيصيبهم لأنهم مخطئون، وتدريجيًا تحولنا جميعًا ل-(آخرين)، هناك حكاية معروفة عن تجربة قام بها بعض الأطباء النفسيين مع أشخاص محكوم عليهم بالإعدام، أوهموا كل واحد منهم بأن شريان يده سيقطع، وخلال إيهام كل منهم بذلك، يُصب الماء الفاتر على اليد فيظن أنه دمه, وبعد فترة يجدون أن هذا الشخص قد مات!

ـ غير معقول! لا حول ولا قوة إلا بالل-ه، لكننا نشهد فعلاً الآن الكثير من المعجزات التي لم تحدث من قبل.

ـ اسمح لي أن أقول لك إن المعجزة كما عرّفها علماء النفس؛ نوع من التدخل الإلهي في المسار الطبيعي للأحداث، ما يشمل خرقا لقانون الطبيعة المعروف، ولأن مشاعر الدهشة والتعجب مشاعر ممتعة للنفس البشرية؛ يميل الناس لتصديق حدوثها بسهولة، فيصدّقون من يدّعي أنه شاهد أمرًا خارقا للطبيعة، ويحبون أن يكونوا شهودًا عليها أيضًا، جزءًا من الحدث.. جزءًا من المعجزة، حتى لو كانت في مخيلتهم فقط ولم تحدث بالفعل».

رمقت رضوى التلفاز بقلق، وسألتني بخفوت كأنها تخشى سماع نفسها:

ـ هل تصدقين هذا الكلام؟

حركت رأسي بحيرة، أقول وأنا أتابع عمل الطفلين لواجباتهما:

ـ ربما، قد يكون هذا الكلام منطقيًا.

ـ منطقيًا؟ أستغفر الل-ه العظيم! لا يجب أن تشاهدي هذه القناة، إنها من المَكاره، وقريبًا ستصدر فتوى بتحريمها، زوجي أخبرني بذلك.

رمقتها مبتسمة، تضايقني سذاجتها أحيانا، وغيّرت الموضوع:

ـ دعك من القناة وأخبريني، هل الأمور بينكما الآن أفضل؟

تنهدت وتمتمت:
ـ الحمد لل-ه على كل حال.. بالمناسبة؛ لم أرك منذ فترة في حلقات التطهر، لماذا انقطعت عن الذهاب؟
ـ لم أنقطع.. لكن انشغلت مع الأولاد والمذاكرة.
أشحْث بوجهي مبتعدة عن نظراتها، أقنع نفسي بأنني لا أكذب. في كل مجمع سكني الآن مبنى خاص يذهب إليه الناس دوريًا للتعبد والاستغفار عدة ساعات كل أسبوع، البعض يرتاده يوميًا، ويتطير الجميع ممن ينقطع عن الذهاب؛ خوفا من عقاب يسلط عليهم بسبب ذنوبه المتراكمة التي لا يتوب عنها.
في البداية أحببث الذهاب هناك كلما سنحت لي الفرصة لأخلو بنفسي وأناجي الل-ه، لكن تدريجيًا اختلف الأمر، منذ بدأت السيدات في توزيع حلوى صغيرة من باب المودة على الأخريات، ثم كثرت وتنوعت أصناف الحلوى والأطعمة، وبدأ صوت الأحاديث الجانبية الهامسة يعلو ويملأ المكان يومًا بعد الآخر. لم ألبث أن وجدتني أحضر ما يشبه مناسبة عائلية أو اجتماعًا نسائيًا مليئا بالأكل والثرثرة، فخف حماسي للذهاب. المشكلة أنه كلما ازداد تماسك وتقارب تلك المجموعة، وَضح أكثر انعزالي عنهن.
ـ كثيرات يسألن عنك، يجب أن تذهبي قريبًا.
ـ بالتأكيد، إن شاء الل-ه.
وقفت تقول:
ـ سأعود لبيتي الآن، مختار طلب مني ألا أتأخر.
ـ أي تأخر يا رضوى؟ الباب أمام الباب، لكن كما تريدين؛ كي لا تحدث مشكلات بسببي.
ضحكت تخفي حرجها، قبل أن تصافحني مودعة، وأتابع بنصف تركيز بقية البرنامج. هل هو مجرد إيحاء نفسي كما يعتقد البعض؟
ما زالت كثير من الأمور غامضة، غير مفهومة؛ أراها ضربات قدرية تسدد في مكانها بدقة، أكثر من كونها عقابًا سماويًا، أحيانا أفكر أنني أحلم.. حلم طويل غريب، لكن يقين الواقع كان يهدم بسهولة هذه الفكرة.
علقنا في دائرة الموت، نتساقط تباعًا، كل عام يتصاعد عدد الوفيات عن الذي قبله، لكن الحياة لم تتوقف، استمر الناس في الزواج والإنجاب، والموت مستمر في حصاده؛ شاب أو عجوز، دورة لا تنتهي ولا تتوقف مهما حدث.
ردد البعض أنها كارما، قانون التعويض أو الحساب لإعادة التوازن الكوني، فنتائج اليوم قد تكون في الغد أسبابًا وهكذا، قاعدة بسيطة جدًا؛ من يفعل خيرًا يعود له.. ومن يفعل شرًا يرتد إليه ولو بعد حين، قاعدة بديهية جدًا، لم تكن تتحقق إلا نادرًا.
على الأقل كان هذا تفسير الغرب لما يحدث، لا تقنعهم فكرة العقاب الإلهي بقدر فلسفة الكارما، التي يرون أنها نشطت بشكل لم تعرفه البشرية من قبل، نتيجة للفساد والظلم الذي اشتد في العقود الأخيرة، ما دفع الكون لإصلاح نفسه من جديد.

ربما عليّ الذهاب للتطهر وإصلاح نفسي أنا الأخرى، الإحباط واليأس يكادان يتملكانني، فمنذ عدة أيام بعد أن أوصلت طفليّ للمدرسة، اتجهت لمستشفى «الإخلاص»، أحد أكبر المستشفيات في القاهرة، وتوسع أقسامه مؤخرًا دفعني للذهاب والسؤال فيه مجددًا، لعلي أجد الاسم هذه المرة في أي تحديث تم.
دلوني في الاستقبال لمكتب به عدة ممرضات، اقتربت منهن أقول لإحداهن:
ـ كنت أريد السؤال عن الحالات الغريبة أو النادرة هنا؛ غيبوبة أو إعاقات دائمة مثلاً منذ.. الزلزال الكبير.
سرت همهمات الاستعاذة والتطير قبل أن تجيبني:
ـ ياه! منذ ست سنوات تقصدين؟ أعوذ بالله من تلك الأيام.. الله لا يعيدها، ظننا أنه يوم القيامة! كل شيء تدمر.. البلد أصبح كومة تراب! لكن إن كان الاسم موجودًا سنجده، أما إن لم يكن مسجلاً فلا أستطيع أن أعدك.
كان الرد الذي أسمعه دائمًا، ومع ذلك لم ينقطع أملي، فقد امتلأت المستشفيات بالأقسام الخيرية التي يصرف عليها رجال الأعمال، لا يمكن أن يوجد الآن مريض دون علاج، فإن لم يقم مسؤولو الدولة بدورهم، فإضافة إلى ما سيصيبهم من كوارث أثرياء البلد يتولون الأمر، إن كان ثمة شخص حي ومصاب.. فلا بد أن أجده في مستشفى ما، حتى لو لم يكن اسمه مسجلاً، لا بين الأموات ولا الأحياء، مريض مجهول الاسم في الدفاتر الرسمية كالذي أبحث عنه، إن كان ما زال حيًا.
ـ لم أجد الاسم في القسم الخاص بحالات الزلزال القديمة، أحتاج للمساعدة وشخص على دراية بالحالات لأجد من أبحث عنه.
ـ معك حق، لماذا لا تسألين رئيستنا؟ إنها لم تصل بعد.. انتظريها، هي تعرف أكثر، وتعمل في المستشفى منذ عشر سنوات.
ـ ومتى ستأتي؟
نظرت الممرضة في ساعتها وعبست بقلق:
ـ غريبة.. خير يا رب.. لماذا تأخرت؟ ليس من عادتها.
انتشر الفزع على الوجوه بسرعة البرق..
ـ أكيد خير إن شاء الله.. طوال عمرها تقية ومخلصة وتراعي ربنا في كل شيء.
تمتمت الأكبر سنًا بأسى:
ـ الأتقياء يموتون أيضًا يا بنتي.
ـ فأل الله ولا فألك! أستغفر الله العظيم.. سامحيني، تعرفين غلاوتها عندي، ادعي لها أن تصل بالسلامة.
ـ يا رب.
قلت أطمئن نفسي قبلهن:
ـ إن شاء الله تصل بالسلامة وتكن بخير.. ما اسمها كي أعود لاحقًا حينما تأتي ولا أعطلكن؟

ردت الأكبر سنًا بنبرة لا تخلو من التشاؤم:
ـ سهير.. اسمها سهير.

* * *

ـ لا حول ولا قوة إلا باللـه، يا عيني على نصيبك يا بنتي.
أطرقتْ بصمت ألوم نفسي للمرة الألف على قدومي للتطهر مع رضوى، لم أكن أعرف أنني أثير فضولهن لهذا الحد، وأنهن تناولن غرابة وضعي مع طفلين كل منهما باسم أب مختلف، فلم أملك إلا أن أحاول ملء فراغات فضولهن بقصة مناسبة، محاولة تحري الحقيقة قدر الإمكان لأتجنب الكذب.
وتابعت المرأة الأكبر سنًا التي بدت كبيرة المجلس:
ـ لماذا لم تفكري في الزواج لأجل طفليك؟ تعرفين مثلنا المشقة التي نعانيها منهم الآن، بارك اللـه لنا فيهم. لا بد أنك تحتاجين لمن يساعدك ويسند ظهرك.
أضافت امرأة أربعينية بحماس:
ـ نعم، الزمن تغير وعاد الرجال لحمل المسؤولية معنا، من قبل كان زوجي يترك لي مسؤولية كل شيء، البيت والأولاد والمشاوير والمذاكرة، بجانب عملي طبعًا، وهو يعود من العمل ليأكل وينام، ولا يفعل شيئا سوى التذمر من الأكل وصياح الأولاد، أما الآن فيساعدني في مشاويرهم ومذاكرتهم ليتجنب مشكلات الشغل ويوسع اللـه عليه وعلينا، الحمد للـه ربنا كريم، وأنت شابة جميلة وكثيرون يتمنونك.
أدركت خطئي عندما لم أقطع هذا الطريق عليهم من البداية بادعاء أن لي زوجًا مفقودًا منذ الزلزال مثلاً، لكن خيار الكذب لم يعد متاحًا الآن، وخشيت من ذنبه أكثر من افتضاح أمري.
ـ لولا فقط المشكلة التي تعرفنها.
قالت رضوى بضحكة خجل ولؤم، انتشرت سريعًا على وجوه بقية النساء.
ـ الشيوخ أباحوا نوعًا من المخدر عند العطار يفيد في هذه الحالات، لكن بمقدار ضئيل فقط.
ـ أعرف، لكنه لا يأتي بنتيجة كل مرة.
تعالت مجددًا الضحكات الخبيثة المتواطئة، وتحول الحديث عن جرعات المخدر المختلفة، ومقدارها بالتحديد، وأفضل الأنواع بعد التجربة.
عدتُ لمنزلي أخيرًا يملأني الشعور بالنجاة والغم في ذات الوقت، لم أجد مفرًا من أن أجيب أسئلتهن بأقل قدر من الكلمات، وضيق روحي يزداد، أعلم الآن لماذا خشيت من الاندماج معهن منذ البداية، فعندما لا يمكنني الكذب، أو كشف الحقيقة، لا يكون لدي ما أخبر به أحدًا.
كنت أتوق لأن ترتقي روحي وتغمرني السكينة، لأكتشف ككل مرة أن دربي ما زال بعيدًا، وأقفال راحتي عنيدة، أكثر مما كنت منذ سنوات، حين كان يلين قلبي وتذوب أقفاله بموعظة صغيرة، أو نصيحة صادقة، باتت الراحة عصية علي، كأن الروح لا تلتمع جمالاً إلا وهي تحارب لتسمو.
سألتني رضوى باستغراب عن عدم سعادتي بجلسة التطهر، فحدجتها بنظرة ساخرة حادة

ولم أجب، خوفا من قول ما لا تحمد عقباه.
تجنبت الاجتماع بها عدة أيام، وذهبت مجددًا للمستشفى أسأل عن سهير، فعلمت أنها لم تعد للعمل بعد، ولا أحد يعرف إن كانت ستعود أم لا، فوجدتني أسأل عن أي عمل متاح في الحسابات أو الاستقبال، وقدمت الأوراق اللازمة في انتظار الرد، فمنذ وفاة مديرنا يسود المكتب جو كئيب، لم يتحمل الرجل نظرات الناس وظنونهم فاعتكف في بيته، كما يحدث عادة في تلك الحالة، ليتوفى بعدها بأسابيع قليلة، ويبدأ البعض في تخمين ذنبه الكبير الذي تسبب في موته. لم أحب أحاديثهم المليئة بالظن والموت والتشفي، فنويت الرحيل عنهم كي أخفف في نفسي حدة بغضي لهم، أتساءل إن كانوا سينالون بدورهم عقابًا على هذه النميمة المقيتة، أو إن كان البشر حقًا لا يموتون الآن إلا نتيجة ذنوبهم، الوهمية منها والحقيقية. كلٌ على هواه يُنصب نفسه قاضيًا، يُصدّق دون حق على موت الآخر.
تعبتُ من كل هذا، أشتاق نفسي أحيانًا فأتوه بين الصور، متى كنتُ نفسي فعلاً، ومتى حققتُ ما أريد؟
أحنُ إلى شغف قديم يملأني، إلى روح هائمة تسبقني بخطوتين، أود لو أعود تلك الصغيرة الحالمة.. لو أتوقف قليلاً عن الحديث عن الموت.
لو يغمرني شغف مجنون لشيء لن أحصل عليه، أو أحلم قليلاً.. أحلم أنني لم أحزن قط.. وأصدّق الحلم.
أفكر أنني يومًا سأحمل أسئلتي الصغيرة إلى الل-ه، سأخبره أنني أحببته طوال عمري وآمنت به، فقط لا أعرف.. لا أفهم بعض الأمور، سآخذها معي إليه وأسأله، أسأله أن يزرع الإدراك في روحي، لأني أعرف أنه الحق.. أنه العدل.. وهم المخطئون.
ثم حدث ما لم يتوقعه أحد، استيقظ البلد كله ذات يوم على صوت رياح عاتية، وسماء حمراء دموية، اهتزت البيوت وتكسر زجاج النوافذ والشرفات، احتضنت طفليّ نرتعد بذعر وأصوات العواصف والدمار تخفي أصوات الصراخ، مرت عدة ساعات من الرعب حتى هدأت حدّة الريح، وانتشر الأمل بالخلاص من غضب السماء المفاجئ.
لم تهدأ منابر المساجد بقية اليوم من الصلوات والأدعية، والدعوة للتوبة والاستغفار بلهجة حاسمة ومذعورة، منذرين بأن ما حدث تحذير لنا، ونذير من الل-ه بيوم عذاب آخر، كيوم الزلزال الكبير إن لم نثب عن ذنوبنا.
أدركت في اليوم التالي تشكّل عدة لجان شعبية لاقتياد أصحاب الكدمات الزرقاء لبيت التوبة، لم يكن هناك إجبار، لكن لم يكن عن إرادة حرة كذلك، كان الخجل من الكدمات والذنب يجعل الأم تترك أطفالها، والأب يترك أسرته، يقضون أيامًا في بيت التوبة قبل أن يعودوا لبيوتهم أنقياء بلا ذنوب، لكن في بعض الحالات، كما حدث في العاصفة السابقة منذ سنتين، تزداد كدماتهم ويسودّ جلدهم، ويسبق الموت عودتهم لذويهم.
كنت قد انتهيت توًا من الصلاة مع طفليّ؛ عندما دوت طرقات قوية على باب المنزل، أجفلنا، وانقبض قلبي، اضطررت إلى إجابة الطارق وفتح الباب، لتتملكني الصدمة والخوف.

كانوا مجموعة لم أستوعبها لوهلة، الشيخ خالد، وعدة نساء منهن رضوى، إضافة إلى زوجها، وشيخ آخر هرم.
بدأت رضوى متلجلجة كأنها تنفذ قسرًا مهمة أوكلوها لها:
ـ اجتمع كبار الحي على أنك يجب أن تذهبي لـ.. بيت التوبة، لا تقلقي على الطفلين، أنا سأعتني بهما حتى يصل أحد أخويك.
حدقت بها والدماء تجف في عروقي، وتابع الشيخ خالد:
ـ الكل أجمع على أنك لا تحضرين مجالس التطهر، وقصة طفليك غير مقنعة، لا نعلم أصلها أو صحتها، والل۔ه وحده سبحانه أعلم بالحقيقة، لا أريد أن أقول أكثر من ذلك، لكن نخشى غضب الل۔ه علينا بشؤم معصية لا يريد صاحبها التوبة، تعلمين قصة الرجل العاصي من قوم موسى عليه السلام، الذي لم يترك معصية إلا وفعلها أربعين سنة، فعاقبهم الل۔ه عز وجل بالقحط والجفاف حتى كادوا يهلكون، إلى أن ندم وتاب هذا العاصي وعزم ألا يعود لذنبه.. ولا يرضيك أن يأخذ الل۔ه الجميع بذنب البعض.
التصق بي طفلاي، وتمنيت ألا يشعرا بارتجافي، لكنهما كانا يرتجفان مثلي، والفزع يسري فينا على السواء.
ـ كما أن رضوى جارتك أخبرتنا أنك تشاهدين قناة «فكرة»، وهي قناة عصاة، تشكك في قضاء الل۔ه.
قالت إحدى النساء، فنكست رضوى رأسها بخجل أمام نظراتي الخرساء.
ـ هيا يا ابنتي، لا بد لك من التوبة.
قال الشيخ الهرم وتبعه الصمت، أحدّق في وجهه الخالي من التعبير، في نظرة الشيخ خالد الشامتة، في انكسار رضوى، وقسوة النساء.
ـ لكن.. ليس لدي كدمات زرقاء.
همست بصوت مختنق، واشتعل الاهتمام في عيون البعض، قال الشيخ خالد بسرعة:
ـ هذا ليس دليلاً قاطعًا، ولا أحد يتجنب التوبة.
رد الشيخ الأكبر سنًا:
ـ لا يا شيخ خالد، الكدمات شرط واضح من دار الإفتاء لإجبار المرء إن رفض التوبة، أما غير ذلك فالل۔ه سبحانه أعلم.
قالت رضوى بسرعة:
ـ أنا لم أرَ يومًا كدمة عليها.
فرد زوجها بغلظة:
ـ هي صديقتك، وستنحازين لها بالتأكيد!
رمقته بلوم مردّدة:
ـ أكذب؟ الل۔ه يسامحك!
غمغم حانقًا:

ـ أستغفر اللـه العظيم! أنت هكذا دائمًا! تجلبين لي الذنوب دون أن أقصد!
قالت إحدى النساء المتقدمات في السن:
ـ نحن سنتأكد، أين غرفتك يا ابنتي؟
أنتم مجانين! كلكم مجانين! اتركوني لحالي!
أحرقت دموع الإهانة عيني، لم أكن أعرف، لم أكن متأكدة، ولم أستطع الصراخ بهم، لم أستطع طردهم أو الهرب منهم كي لا يستخدموا القوة معي أمام طفليّ.
اقتربت رضوى تربت على الطفلين بحنان وتهدئهما ليتركاني، وانضمت بقية النساء للمرأة الأولى ليشهدن العرض المُذل، تحركت معهن لغرفتي بخطوات ثقيلة، أرى بسمة الشيخ خالد الجانبية ونظرة النهم في عينيه، فيغمر القهر روحي المنهزمة.

* * *

انسابت دموعي بصمت تغرق وجهي، جلست رضوى بجانبي على الأرض تقول نصف باكية:
ـ لستُ السبب واللـه العظيم، لم أذكر شيئا عنك إلا عندما سألوني وأصرّوا أن أجيبهم، الشيخ خالد هذا، أستغفر اللـه العظيم، هو من أقنعهم كلهم بضرورة أخذك لبيت التوبة، وأخذ يستجوبني عنك، سامحيني يا حبيبتي أرجوك، سامحيني!
أغمضتُ عيني لا طاقة لي بأي شيء، وصوت أمي من بعيد يربت عليّ «كفى يا حبيبتي، قلبي تعب لك»، فأبكي أكثر في حضنها:
«الحزن في قلبي كبير.. وثقيل جدًا يا أمي، لا أدري ماذا أفعل به.. لا أدري».
لكني هذه المرة لا أبكي حبًا أو أبًا فقدته، بل أبكي كسري وضعفي وهواني على الناس.
انكسر جزء جديد في روحي، كسر ينضم لآخر؛ وفاة أبي، وفاة حمي، حمي الذي مات قبل أن يموت بشهور، وتعلمت معنى العجز وقلة الحيلة وأنا أراقبه.. فقط أراقبه لا أملك شيئا لأخفف عنه، ولا أملاً صادقا أمنحه له.
وكأنني أراه الآن، أرى موته البطيء، كل يوم شيء جديد فيه يموت؛ حركته في المنزل تموت.. حضوره يموت.. صوته يختفي ويموت.. مزقني أن يدرك أنه لم يعد قويًا يملأ الدنيا بأوامره كما كان، ألا يعمل عشرين ساعة في اليوم كما دأب أربعين سنة ماضية، أن يبقى وحيدًا في غرفته ينتظر من يطرق بابه ويصبر على كلماته المتقطعة، أن يدرك هو.. أنه يموت.
ـ سامحيني يا نورا.. سامحيني لأنني أتيت بك لهذا البيت، ظننت أن حال ياسين ستنصلح على يديك، وسيبتعد عن سيطرة أمه، لكن لا أحد يتغير.
سألني على فراش الموت، وارتعشت الحروف على فمي، تترك كلماته فيّ أثرًا مدويًا..
أغمض عينيه حتى ظننت أنه غفا، لكنه فتحهما ثانية.. غارقتين في دموعه.. قبل أن يسأل بصوت مبحوح:
ـ أتظنين أن اللـه سيغفر لي تقصيري يا بنيتي؟ تركت الحياة تشغلني وتأخذني منه.. ظننت دومًا أن هناك الكثير من الوقت، لكن لا شيء يجري أسرع من العمر. ادعي لي دائمًا.. ادعي لي

كل يوم يا نورا..ادعي لي في صلاتك.. أرجوك.. لا تنسي.
أردت أن أؤكد له وأطمئنه أن الله سيغفر له لأن رحمته وسعت كل شيء، ولا بد أن تتسع له وللخير الذي فعله طوال حياته، أردت أن أنهره بلطف وأطلب منه ألا يتحدث عن موته لأنه سيتحسن وسيكون بخير.
اختنقت كلماتي ومشاعري بدموعي، ولم أستطع سوى أن أعده همسًا:
ـ لن أنسى.. لن أنسى أبدًا.
ابتسمت لي عيناه المنطفئتان وأغمضهما مجددًا في غفوة طويلة.
لماذا؟ لماذا أشاهد موت أبوين لي؟ لماذا لم يبق معي واحد منهما.. واحد فقط!
تمنيت من قبل، عندما مات أبي بهدوء ذات يوم بعد صلاة العشاء، تمنيت لو كانت هناك مقدمات لموته، لأخدمه وأعتني به وأخبره كم يعني لي، تمنيت بعض الوقت معه في أيامه الأخيرة، لا هذا الموت المفاجئ.
والآن لا أعرف أيهما أكثر إيلامًا للقلب، أن نفقد من نحبهم فجأة، دون مقدمات.. دون وداع، أم نشهد موتهم البطيء، نشهد انسحاب وجودهم من الحياة يومًا بعد الآخر، نرى الموت في أعينهم ولا نبوح.. تنطفئ أرواحهم وتذبل أمامنا، يُمزقنا ألم العجز ووجع الفراق الوشيك، نواري حسراتنا ونبتسم؛ نبتسم لأعين الموت ولا نبوح.
«كفى يا حبيبتي.. قلبي تعب لك».
أخذ صوت أمي يربّت على روحي، ورضوى جواري تصرّ قائلة:
ـ لكن الله رد مَكره في نحره ونصرك، وبقيت في بيتك الحمد لله، يجب أن تفرحي لا أن تبكي، لم يمسك سوء، ربنا كريم.
لا تفهم.. لا تعرف السوء الذي مسني، لا تحس بالمكر الذي نحرني بخبث، وجعلني أدرك أنني يجب أن أرحل من هنا ولا أعود أبدًا مهما كان السبب.

* * *

قبل العاصفة بيوم جاءتني الموافقة على عملي في مكتب حسابات مستشفى الإخلاص، وكان يجب أن أذهب لأخبرهم باعتذاري وعدم تمكني من العمل معهم، لأنني سأنتقل للمزرعة وأستقر هناك، أخذت إجراءت الاستقالة وقتًا أطول مما توقعت، فوصلت بعد الظهر للمستشفى، في أثناء دخولي لمحت خروج امرأة جواري لم تلفت نظري في البداية، قبل أن يشدني شيء مألوف فيها ويجعلني أدير رأسي نحوها وهي تسير مبتعدة، سرتٌ بتردد خطوات وراءها لا أرى سوى ظهرها، لكن هيئتها وطريقة مشيها أضاءا زرًا في عقلي فجأة، لم أدر ماذا أفعل وكيف أوقفها لتستدير نحوي، ثم توقفت هي لتشير لسيارة أجرة فرأيت وجهها، تجمدتٌ، وفي ثوانٍ كانت داخل السيارة تبتعد بها.
«فاتن!»
صرخت باسمها أفيق من الصدمة، لكنها كانت قد ابتعدت كثيرًا ولم تسمعني، توقف تفكيري لدقائق عاجزة عن استعياب عثوري عليها أخيرًا، وبقائها على قيد الحياة، لكن كيف أجدها

مجددًا، وهل ستعود ثانية للمستشفى؟!
ثم ضربتني الصدمة الكبرى، من كانت تزور في المستشفى؟ مَن؟! وبدت كل الاحتمالات فجأة مؤلمة ومخيفة.. هل عثرت عليه؟ أم عليها؟
هل تعرف ما أصابنا بسببها؟ أأخبرها أحد عن الليلة الأخيرة في ذلك البيت المشؤوم؟ فاتن؟ وعادت قصتها كلها مرة واحدة لذهني.

* * *

أذكر عندما تغيرت فاتن، فتر حماسها للتأنق والملابس الجديدة، عادت تأتي بملابسها المألوفة القديمة، هل يئست أخيرًا من جذب اهتمام زياد؟ لم أستطع سؤالها، بخاصة في جلساتنا الجماعية مع حماتي، التي كانت تجلس حمزة في حضنها وتقشر له حبات الفستق، فقلت بقلق:
ـ قطع صغيرة فقط أرجوك.. أخشى أن تقف في حلقه.
ردت بانزعاج:
ـ لا تتدخلي بيني وبين حفيدي، لا بد أن يعتاد على العِز من صغره، أم تريدينني أن أؤكله الفول مثلما تفعل أمك؟
كبحت ردي بصعوبة في حين قالت فاتن بسرعة:
ـ معك حق يا ست الكل، أنا سأكسرها له.
وأحضرت طبقًا وملعقة صغيرة تكسر بها الحبات.
ـ هل هناك أخبار جديدة عن علاء؟
سألت فاتن، فاستغربتْ:
ـ ماذا تعنين؟
ردت ثريا بمزيج من الأسى والاستياء:
ـ كان في مظاهرة، أو وقفة كما يقولون، وتم القبض عليه مع مجموعة من أصدقائه منذ يومين، لكن كوثر أخبرتني منذ قليل أنه تم إخلاء سبيله مؤقتًا.
تمتمتْ بارتياح:
ـ الحمد للـه!
أخبرني آخر مرة رأيته فيها هنا، أنهم ينظمون وقفات احتجاجية اعتراضًا على النتيجة ويطالبون بإعادة الانتخابات، نصحته بالحذر، فنظر لوجهي يخبرني بحزم:
ـ سنغيّر الواقع يا نورا، سنغيّره هذه المرة ولن نتراجع.
لطالما أحببته كأخويّ عمر وكريم، وددت لو أربت عليه مواسية، لكنني اكتفيت بتمتمة متعاطفة:
ـ إن شاء اللـه يا علاء، فقط انتبه لنفسك جيدًا.
ـ وهل وصلنا لما نحن فيه إلا لأن كلاً منا لا ينتبه إلا لنفسه؟ لا تقلقي.. ما يشغلني أكبر من نفسي بكثير.

اكتشفت من النظر لوجهه أن وجع انكسار الحلم أكثر صلابة من أي أمل.. وأكثر خطورة من أي حماس.
قالت فاتن:
ـ ليته يهدأ ويتعقل ويترك الأمور تسير كما هي، أيظن أنه سيغير الكون؟!
ـ ليس بالضرورة أن يغير الكون كله يا فاتن، يكفي أن يحقق حلمه.. يغير بلده على الأقل.
ردت ثريا وهي تبعد يدي حمزة عن تعلقه بسلسلة عنقها الأثيرة:
ـ كلام فارغ! قلت لكوثر إن هذا الولد لن يتوقف إلا عندما يسجن أو يموت بعيار طائش، كما يحدث في تلك المظاهرات، لعلها تردّه لعقله.
غمرني القلق، وغيرت فاتن الموضوع:
ـ ألن تعيدي الأسطى فوزي يا حاجة؟ رأيته في شارعنا وأنا في طريقي اليوم، ظل يتكلم ويحكي عن عمي معتز، ألف رحمة ونور عليه، حتى كادت الدموع تفر من عينيه، وأوصاني أن أرسل لك السلام.
ـ داهية لا ترجعه، ما الذي ذكره بنا! كان يأخذ راتبًا دون عمل إلا توصيل نورا هانم كل أسبوع عند أهلها! كفاية علينا الأموال التي كان يهدرها عمك الخائب كل شهر هنا وهناك كأنه يأخذ من بئر! الل-ه يرحمه إن جازت عليه الرحمة! وأم فتحي اشتكت أكثر من مرة مضايقة فوزي لها، فجْر عواجيز بعيد عنك!
ـ معقول؟ لا يظهر عليه أبدًا!
ـ قلة الأصل تفعل أكثر من هذا!
تظاهرتْ بأنني لم أسمع شيئا رغم وقع الإهانة داخلي، لم تكن المرة الأولى التي تعايرني فيها، وأمام فاتن، بالمصروف الشهري الذي استمرّ ياسين يمنحه لي بسبب توصية حمي رحمة الل-ه عليه.
الأرجح أنها طردت عم فوزي لأنه كان يوصلني في الأيام الأخيرة لحمي، لا أصدّق أبدًا أن أم فتحي اشتكت منه، فهو دومًا خلوق يراعي الل-ه، ربما لو ظل دون عمل مطلقًا وكنتُ أنا خارج الموضوع لرضيتُ ببقائه.
هممتُ أن أتدخل وأدافع عنه وأمري لل-ه، لكن عندما رن هاتفها أسرعت تعطيني الولد وتختفي في غرفتها.
بقيت وحدي مع فاتن، ووجدتها تلحق بي وأنا أضع حمزة في فراشه، جلستُ على طرف السرير وعلى وجهها الرغبة في الكلام، فسألتها:
ـ ماذا بك؟
انفجرت كأنها تنتظر السؤال:
ـ مخنوقة! حظي أسود قطران في كل حياتي!
حاولتُ التهوين عليها مازحة:
ـ أنت حبيبة الحاجة يا تونة.. من مثلك؟

ـ اهزأي مني! حبيبتها قال! أنت تعرفينها أكثر مني! بالكاد ترمي لي شيئا، الأكل يظل أياما في الثلاجة لا أحد يمسه ولا تعطيه لي أو لغيري حتى تفوح رائحته، المكسرات لا تعطيني منها إلا بعد ظهور أول سوسة فيها! حتى الملابس مركونة في الدولاب ولا تخرج لي منها إلا ما انسل خيطه وبهت لونه! أنسيت ما حدث في العيد الماضي؟ أخذت خروفا كاملاً توزعه بمعرفتها، ظننت أنها ستخصني بأي نصيب منه، لكنها تجاهلتني تمامًا ولا أعرف لمن أعطته! لولا الحاج معتز ألف رحمة ونور عليه هو من أعطاني نصيبي وزيادة كعادته.. الل-ه يرحمه يا رب ويدخله فسيح جناته، كريم ويحب الناس طوال عمره، أما الحاجة.. تكنز كل الدنيا عندها كأنها ستعيش للأبد! وليس بيدي سوى مجاراتها وأخذ ما تعطيه لي.. لا أحد لي في هذه الدنيا، حتى أمي مريضة ونائمة أغلب اليوم، ولدتني على كبر كما يقولون.. جئت في الوقت الضائع، وأخذت الحظ الضائع في الزواج والحب وكل شيء!

تأثرتْ للمرارة في صوتها، وربتت عليها بتعاطف:

ـ لا تقولي ذلك يا فاتن، أنت جميلة وأصيلة.. ومؤكد أن الخير سيأتيك قريبًا.

ابتسمت بأسى وردت:

ـ أي خير؟ زمن الخير انتهى! والل-ه أخاف أن تكون الحاجة ثريا على حق، والل-ه لم يعد يقبل منا حتى زيارة بيته. دائمًا ما تقول هذا عن والدَيْ زياد، تؤكد بفخر أن الل-ه قصف عمرهما لأجل خاطرها.

عبستْ مستفهمة.. ثم سألت:

ـ والدا زياد توفيا في الحرم المكي؟ معًا؟!

ـ نعم! في كل شارع الآن تجدين بيتًا مات له عزيز في الحرم خلال السنين القليلة الماضية، سبحان الل-ه، سقط جزء من سور الطابق الثاني عليهما وهما في الطواف.. لا إله إلا الل-ه!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالل-ه.. لم أكن أعلم.

وجمتْ بحزن؛ تساءلت كثيرًا كيف توفيا، ولم أدر مَن أسأل، حماتي التي تذكر موتهما معًا بتباه كأنه هدية القدر لها، أم زياد الذي تغيم عيناه ما إن يأتي ذكرهما.

تنهدتْ أنظر لفاتن من جديد والفكرة تلح عليّ، لعلي أتخلص من تساؤلي الآخر الذي أفزعني وحيرني طويلاً، لا أدري كيف يمكن أن أستدرجها في الحديث لأعرف إن كانت تنقل أخباري ولو بحسن نية لأي شخص آخر، وقفت هي أمام التسريحة فظننت أنها ستعيد ترتيب لفة طرحتها قبل أن تغادر، لكنني وجدتها تفك ضفائرها وتنفضها قليلاً ليتخللها الهواء، وتعيد جدلها من جديد بأصابع شاردة أمام المرآة، كان لها شعر أسود مجعد طويل، بدا أقل كثافة مما أذكر، وبدت نظرة اليأس في عينيها واضحة في صورتها المنعكسة:

ـ أتعرفين؟ كنت أتمنى أن أشتري في «جهازي» غرفة نوم تشبه غرفتك هذه، لكن إسلام.. زوجي الل-ه يرحمه، لم يكن معه ثمنها، ورضيت بغرفة غيرها، رضيت بكل ما قدر أن يقدمه لي دون طمع، كنت راضية لأنه طيب وحنون، قلت لا يهم أنه ليس غنيًا، المهم أنه يحبني ويعاملني بما يرضي الل-ه، مر شهر وراء الثاني بعد الزواج دون أن تتحقق الفرحة التي

انتظرتها، فصبّرني وطلب مني أن أنتظر أكثر ولا أقلق، كان مجنونًا بي يا نورا، لدرجة أنه يكتئب كل شهر بسبب... تعرفين، عندما يُحرَم من حقه الشرعي.
ضحكتْ بخجل ونظرة عينيها الشاردة تحملها سنين للوراء، قبل أن تتابع:
ـ كنتُ أقول له إنني للمرة الأولى أكتشف أن الرجال هم من يكتئبون بسببها لا النساء! اللـه يرحمه.. المهم أنني انتظرت.. انتظرت حتى نفد صبره، وقررنا أن نكشف، لكن الدكتور أخبرنا أن كل شيء سليم ولا توجد مشكلة، وأوصانا بالصبر.. مزيدًا من الصبر.. صبرنا لفترة حتى أصرّ إسلام على أن نذهب لدكتور كبير آخر، كان علينا أن نصبر هذه المرة لجمع التكاليف المطلوبة للكشف والتحاليل وكل شيء، مرت أشهر ندبر المبلغ، وتحمس إسلام للذهاب في مأموريات بمحافظات أخرى لأن دخلها أكبر، مأمورية والثانية.. وانقلب به الميكروباص، صبرت مرة أخرى.. لم يكن أمامي سوى الرضا والصبر.. لكن العمر يجري، والفرحة التي أنتظرها لا تأتي، لا يوجد أصعب من أن تنتظري فرحة لتعيشي حياتك ولا تأتي. أكره الوحدة يا نورا.. لا أخجل من قول هذا، أريد من يؤنس أيامي ويملأها سعادة وحبًا، لا أريد أن أصبح كأمي.. لا يؤنسني إلا التلفاز؛ «التلفاز روح في البيت»، هكذا تقول دائمًا وتصرّ أن تشغله اليوم كله حتى لو كانت لا تجلس أمامه، أتعرفين أن كل شجاراتنا بسببه؟ ارفعي الصوت.. اخفضي الصوت.. لماذا أطفأتِه؟ سيفوتني المسلسل! رغم أنها لا تتذكر أي مسلسل تتابع أصلًا! أوقاتًا أشك أنها تحبه أكثر مني!
ابتسمتُ ساخرة، وأكملت:
ـ لكن ليس أمامي إلا الصبر، يمكن ربنا يكرمني وتأتي الحياة التي أحلم بها، أقول لك ولا تتضايقين مني؟ أقول لك ما الذي يصبرني الآن؟ كلما أنظر لحالك وأجدك في كل هذا العِز وحيدة مثلي.. لا تؤنسك غرفة النوم الغالية ولا ستائر الحرير، وحالك كحالي.. أصبر.
ختمت كلماتها ببسمة باهتة رمت بها صمتي والوجوم الذي نقلته لي، قبل أن تلف ضفيرتها في شكل دائري وتضع طرحتها حول وجهها، وتنصرف.

* * *

أحقًا نسير مجبورين على قضبان في طريق لم نختره؟ أم أننا من نختار القضبان لكننا فقط لا نريد الاعتراف؟
كانت كلمات فاتن القشة الأخيرة؛ ألقت الحقيقة في وجهي عارية دون تجميل، ماذا أفرق عنها؟ اكتشفتُ أنني أشبهها أكثر مما أظن، أنا أيضًا تخضعني الحاجة، وأختبئ تحت سقف هش.. وزواج هش، حياة واهية أنتظر زوالها دون أن أفعل شيئًا حقيقيًا يساعدني على الخلاص.
«هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة، ما دمنا قرّرنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا».
رسمتُ تلك الكلمات بحروف جميلة على ورق اللوحات في غرفتي، جملة للرائعة رضوى عاشور لم تفارق ذهني منذ قرأتها..

«لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا».
وضعتها أمامي كي لا أنسى أبدًا، كي لا اضيّع عمري في حياة لا أريدها، فيمر العمر وتكبر طاقة الغضب والكره داخلي فأصبح نسخة أخرى من حماتي ثريا.
أو أصبح امرأة تعسة تنتظر الحب وتستجدي اهتمام الرجال، فأفقد احترامي لنفسي. لا أعرف ماذا يمكن أن يحمل لي المستقبل مع زياد، أو إن كان جادًا في مشاعره نحوي، لذا يجب أن يكون قراري نابعًا من داخلي، من كرامتي المهدرة بالاستمرار مع زوج أتألم حين يقترب مني ولا أملك أن أجبره ألا يقترب، فكيف لا أحسم قراري؟
ذهبت لبيت أمي أخبرهم بقراري، كم ليلة فكرت وخططت لكل تفاصيل الطلاق وترك هذا المنزل، وما إن أذهب إليهم ويعرض أمامي أخواي الملابس أو الهواتف الحديثة التي اشترياها بمالي، أو ألمح قطعة سجاد جديدة جلبتها أمي، أخجل من فكرة مواجهتهم، وأكتم حلمي بالحرية في صدري؛ فدعوت أن أستطيع مواجهتهم هذه المرة.
أمي كانت تشعر بي، تدرك التغيُّر الذي طرأ عليّ وعلى مشاعري، ما إن نظرت لعيني ذلك اليوم حتى أدركت سبب همّي هذه المرة. كنت أحاول أن أبدو بخير أمامهم، ألاعب حمزة وألاحقه لأنقذه من سقطاته وإصاباته المتعددة، التففنا حول مائدة الغداء نتناوش ونمزح كالعادة، لكنني لمحت القلق في نظرات كريم، أما عمر فبدا مرحه مصطنعًا، فتأكدت أن أمي أعطتهما فكرة عن الموضوع.
بدأ كريم الكلام بعد الغداء:
ـ عرفنا.. إنك تريدين الطلاق!
صمتُ لا أريد التعرض لهذه المواجهة معهما، كانا توأمين متماثلين، لكنني أستطيع بسهولة التمييز بينهما، كريم بنظرة الجد في عينيه وشعره القصير، وعمر الأكثر مرحًا ومشاغبة بوجهه الأكثر استدارة، وابتسامته التي لا تفارقه، عدا الآن. استمر كريم في الحديث:
ـ لقد قدّمت لنا الكثير يا نورا.. ولن نعترض على أي قرار تتخذينه.
هتف عمر بتوتر:
ـ صحيح، لكن ألا يمكنك أن تصبري عامًا آخر؟ معاش أبي لا يكفي، ولولا مصروفك الذي تعطينه لنا لما استطعنا أن نواكب أصدقاءنا في اللبس والفسح، ونوفر مبلغا كبيرًا أيضًا! تلك المرأة الكريهة لن تجعلك تنالين قرشًا واحدًا إذا تطلقت من ابنها وتركت المنزل!
ـ عمر! ماذا جرى لك؟ أهذه هي الرجولة؟ تعتمد على أختك البنت وتزيد تعاستها لأجل أن تلبس وتخرج مع أصحابك!
ازداد توتر عمر أمام هجوم أخيه، فقلتُ بسرعة:
ـ توقفا.. لا داعي لهذا الحديث الآن، أنا لم أتخذ أي قرار بعد.
ـ بل قرري يا نورا ولا تفكري إلا في مصلحتك، أنت تعرفين أننا نخطط منذ فترة لاشتراء قطعة أرض.. مزرعة صغيرة في أول طريق الصعيد ببني سويف، جاءنا مشترٍ للبيت بسعر ممتاز، إضافة إلى ما كنا نقتصده من مصاريفنا طوال السنوات الماضية، امنا ستبقى عند

جدتنا حتى نستقر أنا وعمر هناك ونبني بيتًا لنا، أترين النصيب؟ لم نرغب في البداية في دخول كلية الزراعة، لكن اكتشفنا أنها خير بداية لمستقبلنا، سنبدأ حياة جديدة ونكوّن عملنا.. تجارتنا الخاصة، لا شيء أفضل من العمل الحر، سأقابل البائع الأسبوع المقبل لمعاينة الأرض والتفاوض على السعر، فكل شيء مرتب ومستقر، ولست بحاجة للتضحية بنفسك عامًا آخر من أجلنا، صدقيني واطمئني.
ملأت الدموع عيني وعجزت عن الكلام، قال عمر مستسلمًا:
ـ هذا صحيح، أنا آسف، المهم أننا اقتربنا من هدفنا الحقيقي، فلا تفكري بنا وفكري فيما تريدينه.
رددتْ بحنان:
ـ لا أستطيع ألا أفكر بكما.. لأنكما سندي في الحياة.
عانقتهما بحرارة، ألمح أمي في طرف الغرفة بنفس النظرة الدامعة.
غادرتهم بروح متلألئة متفائلة، فقد أخذهما الحديث والحلم بالمزرعة الصغيرة.. بالأراضي الخضراء والمواشي، شاركتنا أمي بحماس لم أره لديها منذ وفاة أبي، تقترح أنواع الأشجار والثمار التي سيزرعانها، وانحازت للتي تستغرق وقتًا أقل في البداية حتى يجنيا ربحها أسرع ثم يتوسعا في نشاطهما بالتدريج. حكيا لي عن الركن الخاص الذي سيخصصانه لنباتاتي، والأرجوحة التي سيضعانها في الحديقة كي يلعب حمزة عليها كلما زرتهما، أكدا أنها ستكون جَنّة جديدة، وأنني عندما أزورهما لن أرغب في الرحيل أبدًا، فتركتهما وأطياف حلمهما ترسم البسمة على وجهي.
كلمث ياسين بحزم في قراري. لهجته، فتوره، أنبآني أنه بدوره لم يعد متحمسًا لفكرة الأسرة السعيدة كما كان، شيء ما تغير.. ربما عاد لفتاته، ربما تلك الزوجة السرية هي حبه الحقيقي، لا أدري، لكنني بالتأكيد لم أكن حبه.
أخبرني أنه لا اعتراض لديه على احتفاظي بابننا، وأنه لا يفكر في أخذه مني بعد طلاقنا، لكن يجب أن يواجه أمه بذلك. ووعدني مضطرًا بعودة قريبة عندما ألححث عليه.
ركزت اهتمامي مع فاتن الأيام التالية، أردتْ أن أتأكد إن كانت هي التي وراء تلك المكالمات المريبة، وتعرف ذلك الشخص أم لا، لكن لم تفتني ملاحظة تصرفات حماتي الغريبة، موعدها الأسبوعي مع الطبيب الذي تخرج له وحدها كل مرة في غاية التأنق، عاد «التربو» على رأسها وظهرت خصلات شعرها مجددًا، عادت للتبرج كما لم أرها يومًا، وسمعتها تتحدث مع صديقاتها عن حقن «البوتكس» وشد الوجه.
أردت بشدة لو أحكي لفاتن.. أو زياد.. لكنني لم أعد أراه، كان الأمر مختلفا هذه المرة، ليس كما حدث عندما أهداني الثوب وأرسل مكنونات نفسه في رسالة طويلة تجاهلت الرد عليها كدأبي، رغم أنها مستني في أعماقي. جَرحته، أعرف، لكن لم يكن بوسعي أن أفعل غير ذلك، وأخذ هو يتعامل معي تلك الآونة بصمت، يعصف قلبي بكلمات مُرتبة.. ويُرجف جسدي بنظرة فوضوية المشاعر.

فكرتْ كثيرًا وقتها أنني يجب أن أعيد له هديته، فبعد أن هدأت نوبة خيالي أدركت أنه من الخطأ قبولها.. من الخطأ أن يفكر فيّ بهذا الشكل، لكن لم أستطع.. ليس فقط لأنني أحببت الثوب بشدة وخبأته في دولابي بمنزل أمي، لكن لأنني لم أجرؤ أن أتحدث مجددًا بشأنه، كل المواضيع معه بدت شائكة، حتى توفي حمي وعاد ياسين، رأيته يحترق أمامي.. فاحترقت معه بألم، لا أملك إلا الصمت، أعي كرهه واحتقاره ومشاعره نحوي، يتردد في همسه المعذب أنه يكرهي، كما قال في لقائنا الأخير، كأعذب اعتراف حب.
ومُنذها صار يتجنبني كليًا، كأنه لا يفصل بيننا إلا سقف واحد، ضغط هذا الأمر على أعصابي كثيرًا، يدميني احتقاره لي، ورؤيتي بمظهر الفتاة التي باعت نفسها لأجل المال، كان يجب أن أترك هذا المنزل، لكن عليّ انتظار ياسين، كنت أقنع نفسي بذلك وأنكر مشاعر أخرى تعرف جيدًا لماذا لم أرحل بعد.
لا أدري لماذا هو، لماذا انجرفت رغمًا عني في حبي له، أهي مشاعر الوحدة والحاجة للحب التي تطوف حوله؟ أعرف أنني وقعت في غرام الشجن الكامن في عينيه، أنني أرى قلبه كلما نظر إليّ، أرى وحدته ووجعه، فلا أرغب إلا في منحه كل ما يروي هذا القلب ويملأه سعادة.
لم أفكر إن كان سيمنحني بدوره كل ما أفتقده وأتوق له، طاقة عارمة من العطاء تملأني، تخبرني أن كل السعادة بهجة أنثرها في روحه.
يدور كل هذا بي في صمت، صمت أنهكني؛ فشربت وهمي حتى الثمالة، غصتْ معه في قمم أحلامي الخضراء، واستقبلت مع العشب أولى قطرات الشوق، امتزجت بألوان السماء، أزرق.. أصفر.. وردي، وطهرني الأبيض الصافي، فمضيتْ محملة بنقاء يثقل كاهلي.
تساءلتْ ألف مرة؛ لماذا نخطئ القلب.. نخطئ الحب؟ لماذا يأتي حبنا في الوقت الخطأ؟ فيتحرك باب القلب الموارب، يغرينا ببصيص من البهجة الخطرة، فلا نملك هربًا أو اقترابًا.
عندما عادت فاتن تشرق من جديد؛ خنقتني الغيرة والشكوك، هل عادت علاقتها بزياد؟ كانت تمسك هاتفها باستمرار والابتسامة على وجهها، انتظرتْ وقتًا مناسبًا لأسألها متصنعة المرح:
ـ يبدو الهاتف مهمًا جدًا لديك هذه الأيام!
اتسعت ابتسامتها بفرحة حقيقية، ونظرت حولها تتأكد أن ثريا ليست بالقرب منا قبل أن تقول مرواغة:
ـ يؤنس وحدتي، أليس أفضل من التلفاز؟
ضحكتْ بمرح لم ينتقل لي، لكن حاولت أن أتجاوب معها مبتسمة:
ـ أرى أنك في قصة كبيرة!
اقتربت مني وهي تقول بصوت خفيض يرن سعادة:
ـ يا رب يا نورا يا رب، لن تصدقي.. في صفحة الأعمال الخيرية الذي أدخلتني فيها الحاجة ثريا، تعرفين أن الحاجة ما شاء الله انطلقت بعد أن فتحت لها الحساب على فيسبوك، وتعرفت على مجموعات وأناس كثيرين. المهم، وجدت المسؤول عندهم يرسل لي رسالة في منتهى الاحترام يسأل عليّ ويطمئن أن لا شيء يزعجني في الجروب، فشكرته وأخبرته أنني

فقط لا أتابع هذه الأمور كثيرًا، رد وراء الآخر طال الكلام بيننا، وبعدها بأيام أخذ رقم هاتفي.. لن تصدّقي! أرمل مثلي ومر بكثير مما عانيته بالضبط! صوته يا نورا.. صوته دافئ وحنون، لم أقترب من شخص بهذه السرعة! كأنه يقرأ أفكاري! يعرف كل شيء عني.. يفهمني دون أن أتكلم!

وضحكت عاليًا وتابعت:

ـ أفكر أحيانًا أنه يراقبني! لن تصدّقي كم يصدق في حدسه عني، كأنه يعرفني طوال عمره!

نظرت لها مصدومة أحاول أن أكذب ظني، وقلت أرسم الحماسة على وجهي:

ـ هذا رائع، لكن احذري يا فاتن ولا تأمني أحدًا بسهولة.

ـ لا تخافي! إنه يصر على مقابلتي لكنني لم أوافق.

وضغطت بعض الأزرار في الموبايل قبل أن تعرضه لي وتقول:

ـ هذه صورته.. لم يرسلها لي لكنني وجدتها على حسابه.. سأجن وأراه، قمرا! لكنني لن أجعله يحقق مراده بهذه السهولة، والنبي يا نورا لا تخبري أحدًا ولو الحاجة ثريا، لا أريد مواعظ ولومًا، عندما يتقدّم رسميًا سأخبرها.

جف ريقي وأنا أنظر لموبايل فاتن.. كان هو.. نفس الشخص الذي لاحقني.. نفس الشخص الذي يعرف عني كل شيء!

* * *

ـ أتريدين شيئًا يا فندم؟

حدقت في موظفة الاستقبال بالمستشفى لثوانٍ قبل أن أستوعب مكاني وزماني، ثم أقول متراجعة عن قراري:

ـ نعم، كان لدي موعد اليوم لاستلام وظيفتي الجديدة بقسم الحسابات، لكن تأخرت بسبب ظروف عملي، فأرجو لو من الممكن.. أن أستلم العمل من الغد.

رفعت سماعة الهاتف تخبرني باسمة:

ـ لا مشكلة، سأدخلك لمدير القسم ليرتب معك الموعد.

رسمت بجهد ابتسامة، ورأسي يدور من الأفكار والذكريات، وسؤال يتردد بقلق.. هل اتخذت القرار الصحيح؟

٧

وقفت تحت الماء المنهمر في حوض الاستحمام، وضربات المياه الباردة تغمر جسدي بشعور رائع من الانتعاش، كيف يستمتع من يستحمون بالماء الدافئ، فلا مثيل لتلك البرودة المنعشة! غرقت في بهجتي حتى تحوّل الماء فجأة لبرودة مؤلمة، فتحت عيني ومددت يدي أغلق الصنبور فشهقت بذعر أرى الكدمات تملأ ذراعي، نظرت لجسدي بهلع ووجدت الكدمات الزرقاء تغطيه، أخذت أصرخ وأصرخ كأن جسدي يتمزق.

«أعوذ بالل-ه من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالل-ه من الشيطان الرجيم!»

استيقظت أرتجف فزعًا، أفحص ذراعيّ وأكشف ساقيّ، خلعت ملابسي كلها أمام المرآة أتأكد أنه لا وجود للكدمات المميتة في جسدي، حتى هدأ روعي، ومسحت وجهي بتعب وأنا أستغفر الل-ه.

لا يمكن أن تكون هي، نعم أنا متأكدة!

جلست في فراشي ألف الغطاء حولي، لا لست متأكدة يا فاتن!

أستغفرك يا رب، لقد لمحتها، لمحتها والسيارة تبتعد دون أن أتخيل أنها هي، لم أصدّق حتى منتصف الطريق أنني رأيتها بعد كل هذه السنين، وفي نفس المستشفى؟ حكمتك يا رب! أيمكن أنها تذهب لنفس السبب الذي أتردد على المستشفى بسببه منذ عامين؟ هل علمت؟

نهضت أستر جسدي برداء النوم، قبل أن أدخل المطبخ وأضع براد الشاي على النار، أحتاج أن أفيق وأركز أكثر، قبل أن أذهب للمدرسة التي أعمل فيها مُدرسة في مرحلة رياض الأطفال، حيث يكون الأطفال طيبين.. شهيّين كالحلوى الطازجة، أحب صحبتهم ولعبهم وأنسهم، وأكره وقت تركي لهم، لبيتي الصغير الخاوي وليالي الوحدة، الشيء الوحيد الذي لم يتغير حتى بعد أن انقلبت الدنيا ولم يبق فيها حجر في مكانه، سبحان الل-ه في حكمته.

طوال اليوم أفكر إن كانت هي أم لا، منذ أن لمحتها تلك الثواني ولم يهنأ لي بال، أتذكر حياتي القديمة وأخطائي التي تملأ صحفا! أرتعب وأخجل من نفسي، هل يمكن أن أعاقب الآن لذنوبي القديمة؟

أستغفر الل-ه العظيم، سامحني يا رب يا كريم يا رحيم، ليست مجرد ذنوب، لكنك أعلم بحالي، أعلم بندمي، بتوبتي، بكرهي حتى للتذكر، لكن منذ رأيتها وكل شيء يدفعني للتذكر.. والندم أكثر.

وليد.. سامحه الل-ه حيًا كان أو ميتًا، دخل حياتي فجريت كالعمياء وراء سعادة خادعة، كنت جاهلة لا أرى أين خطئي، رجل حنون يفهمني ويعرف ماذا أقول قبل أن أنطقه، ترمَل مثلي ويتفهم كل ظروفي، ثم إنه صيدلي له مستقبل، طالما وعدني أنه سيغنيني عن الاحتياج لأي

مخلوق، سيعوضني عن كل يوم شقاء وحرمان عشته، كيف لا أضعف أمامه؟ كيف أرفضه؟
كنت معرضة للضعف في أي وقت، بث أخشى من سيري في الشارع، أخشى انتظاري لنظرات الشوق من الرجال، أرمقهم بطرف عيني بنظرة لا تصدّ ولا تعد، أتساءل إلى متى سأصمد.
أتاني وليد وسط كل هذا؛ كل هذا الشوق والخوف والحرمان.. فكيف أرفضه؟
أتذكر كلمات الحاجة ثريا التي تهزأ وتسخر من اختيار أمي الخائب لأبي الفقير، حكاية قديمة تقصّها عليّ مرارًا وتفخر باختيارها لرجل ثري مثل أمها ـ خالتي ـ فلم يذوقا طعم الحرمان، ليس كأمي التي عاشت طوال عمرها منبوذة من العائلة الثرية وغرقت في الفقر، كل هذا لأنها سارت وراء قلبها ولم تفكر بعقلها، كانت صغرى أخواتها، جميلة مدللة، حتى أتعست نفسها بالحب. لكن وليد يحبني وله مستقبل، ملأ قلبي وعقلي معًا، كيف كنت سأعرف أنني أخطأت؟
لن أنسى أبدًا غبائي يوم اتصلت به أهنئه على افتتاح الصيدلية، فألحّ عليّ في اللقاء.
ـ ليتك معي يا روح قلبي تشاركينني هذه اللحظة، لكننا سنحتفل ولن أقبل أي رفض، أنت لا تقابليني إلا بطلوع الروح، كأنك لا تطيقين رؤيتي.
شهقت وقلت ملتاعة:
ـ أهذا ظنك بي؟! أنت تعرف أنني أخاف من كلام الناس، وأمي مريضة طوال الوقت، وبالكاد أذهب للحاجة ثريا كما أخبرتك.
ـ لا أحب هذه المرأة من كلامك عنها وسوء معاملتها لك، لا تذهبي لها مجددًا.
رددتْ بمرارة:
ـ ليتني أستطيع، لكنك تعرف «البير وغطاه».
ـ أنا سأجعلك تستغنين عنها وعن أي مخلوق، لكن قبل أي شيء نتقابل الليلة.
ـ صعب.. صعب يا وليد.. أمي متعبة جدًا اليوم.. و.. و...
قاطعني بحنان:
ـ أنسيت أنني دكتور؟ يمكنني زيارتها لأطمئنك، وتعرّفيني عليها.
صمت خائفة من إغضابه، أحاول إيجاد حجة:
ـ أخاف مما سيقوله الناس إن رأوك.
ـ دكتور.. دكتور ويكشف على أمك المريضة، لن يشك أحد.. ولن ينتبهوا أصلاً، الناس الآن كل منهم مشغول بحاله.
ـ طيب.. أفكر وأرد عليك.
ـ تفكرين؟! كما تريدين، سلام الآن!
ـ وليد، انتظر.. لم أقصد..
لكنه أغلق الخط قبل أن يسمع كلامي، يعرف أنني أستوي على نار هادئة، لم أتحمل فكرة أن أخسره بعدما مال بختي مع زياد، اتصلت به أكثر من عشر مرات حتى أجابني أخيرًا، لأخبره مستسلمة أنني سأنتظره الليلة ليقابل أمي.
ـ أنت أغلقت التلفاز لتنقطيني! تريدين أن أموت وترتاحي من خدمتي!

هتفت أمي بصوتها المرتعش بجملتها المفضلة، فتنهدتُ بصبر:
ـ والل-ه العظيم لم أقترب منه! تعرفين أن السلك يهتز مع أي هواء ويقطع الإرسال، لكن حاضر سأشغله لك.
وأخذت أحرك السلك حتى عادت الصورة.. وبعد دقائق غفت أمي كالمعتاد.
ذهبت لغرفتي والتوتر يهزني كما يهز السلك فيتوقف عقلي عن التفكير وينقطع إرساله؛ وليد على وشك الوصول الآن، ولا أعرف إن كان ما أفعله صوابًا أم خطأ؟
جربت كل شيء لأصلح حظي المنكود، وأنتزع فرحة من حقي تأبى أن تأتي، ربما لأنني كنت أحسب كل شيء بالورقة والقلم، فلأجرب ألا ادّقق كثيرًا في الدنيا لعلي أخيرًا أنال خيرها.
غادرت غرفتي تاركة بابها مفتوحًا، وعدتُ أنتظر أمام باب الشقة، أروح وأجيء باضطراب، أمسد ثوبي.. طرحتي.. أتظاهر بأنني لم ألحظ الخصلات المكشوفة من رأسي.. وتفصيل ثوبي لاستدارات جسدي البارزة.. حسنًا، ألستُ عروسًا؟ هذا ما تفعله العرائس الآن.
سمعت صوت قدميه على السلم، ففتحت الباب بسرعة قبل أن يطرقه.. ضرب الدم قلبي بقوة، كان لا يُقاوَم بوسامته الخشنة، والبالطو الأبيض المعلق على ذراعه، ابتسم لي وأنا أغلق الباب بسرعة خلفه، والتفتُ أنظر إليه، نظرته الجائعة أقفلت كل قنوات عقلي، وفتحت المجال لقنوات أخرى مختلفة.
قال بنعومة:
ـ كيف حال ماما الآن؟
رددتُ دون تفكير:
ـ نائمة.
ـ جميل.. جميل جدًا.
اقترب مني فتراجعت للخلف، لا، لا يمكن أن أقبل بذلك، لكنّ جزءًا مني كان يدرك ما أفعله.. يدرك معنى الثوب الضيق الذي أرتديه، وباب غرفتي المفتوح.. جزءًا جعل مقاومتي واهية عندما أمسكني بين ذراعيه يلبي نداء السرير المطل من زاوية الغرفة، بغطائه المشغول بالحرير الرخيص.. مفرش زواجي.. هل يراني إسلام الآن؟ أرهبتني الفكرة للحظات، لحظات لم تصمد أمام هوجة حارة من المشاعر أطفأت عقلي تمامًا.
مر شهر على علاقتي الجديدة به، بعد أول مرة كنت أنا من أذهب له في غرفة صغيرة جديدة الأثاث، يقول إنها لصديقه الذي يعمل في محل الأجهزة الكهربائية المجاور له.
شهر أحاول صبغ السعادة على أيامي، أتجمل وأتعطر، أرتدي قطع الحرير كالعرائس، أفرح لأنني وجدت أخيرًا من أتزين له، كنت أفعل كل ما تفعله امرأة سعيدة، حتى لم أعد أستطيع تجاهل ثقل قلبي الذي يزداد.. وتعاستي التي تتضاعف، أما نشوة تلك الساعات القليلة التي أمضيها معه فلا تمحو الأثر المُر الذي يبقى في جوفي بعد كل لقاء.
لم أفهم لماذا لم أكن سعيدة كما ظننت، بعد أن وجدت الأنس والحب المشتعل الذي أتوق إليه، لماذا ترفض الدنيا منحي الفرحة مهما غيرت طريقي وجربت كل الأبواب؟

ـ متى سنتزوج يا وليد؟
سألته مئة مرة، ورد بألف إجابة مختلفة، عرفت أن حبنا الذي يشتعل في الحرام هو ما يجعلني أفقد متعتي به، أردته حلالي، رغم كل حاجتي له لم أنس أن ما نفعله.. ما أفعله؛ نهايته جهنم، لكنه تهرب مني. تباعدت لقاءاتنا، أطلث عليه الغياب لم يهتم، قاطعته لأسبوع فلم يسأل.. غلبني الشوق وذهبت بعد أسبوعين أطرق باب الغرفة المشؤومة فلم يأتني رد، مرة وأخرى حتى وجدت يومًا الباب مفتوحًا وفراش بهجتي المحرمة مختفيًا، يحتل مكانه أجهزة وصناديق كرتونية وعمال، فخشيت أن أسأل.. مشيث وخفت أفضح نفسي بسؤال.
اتصلت به كثيرًا دون رد، كان يخبرني أنني «نكدية» وعاجزة عن الفرحة وهو لا يطيق هذا النوع في حياته، ظننت أنها كلمات غاضبة لرفضي الذهاب إليه وحسب، لم أستوعب أنه يعنيها إلا عندما اختفى من أمامي كسراب لم يوجد يومًا، ملأت الوحدة والهم قلبي كأن لا سبيل لمداواته أبدًا.
سلبتني الأفكار النوم كل ليلة، حتى انتبهت لتأخر الحيض عدة أيام، ماذا إن اكتشفث أنني حامل منه؟ كيف يمكنني مداراة الفضيحة والعثور عليه؟ لم آخذ حذري في علاقتنا لتاريخي في العقم، ولأن جزءًا خائبًا فيّ أراد أن يعرف ويتأكد، ولغبائي استمعت له! ما الحل الآن إذا تأكدت أنني لست عقيمًا كما ظننت؟ لن تتحمل صحتي الإجهاض.. إجهاض؟! أقتل حلم عمري والطفل الذي طالما تمنيته؟
لا، يجب أن أفكر في حل، في حيلة، سأذهب لصديقه الذي يعمل في محل الأجهزة الكهربائية وأسأل عنه، زل لسانه مرة وقال إنه مسرور بسير العمل في المحل وإن التجارة هي المستقبل الحقيقي، نسي في لحظة صفاء بيننا أنه أخبرني أنه صيدلي! أخفيت صدمتي حينها ولم أفهم، ضحكث على نفسي وأقنعتها أنني لا أفهم، أتراه يعمل في هذا المحل مع صديقه؟ يجب أن أسأل عنه. لكن ماذا إن افتضح أمري؟ كنث قد سمعت أن الجماعات المتطرفة المنتشرة في البلاد قتلت امرأة في الصعيد بتهمة الزنا، مجرد شبهة.. بلاغ مجهول لتلك الجماعات فتتحمس للقيام بمهمتها، فهل أفضح نفسي لأكون أول حالة في القاهرة؟!
لا.. سأذهب لزياد، ألم يعرض عليّ الذهاب لشقته يومًا ورفضث؟ رفضت لأنني ظننت أنني أغلي نفسي ولا ارخصها؛ فرماني جانبًا دون اهتمام كأنني لا أساوي شيئا.
فلأذهب له الآن.. سأوافق على أي شيء يريده، حتى لو رفضني، سأبتزه.. أعرف كم يرغب في نورا، نظراته تلتهمها كل مرة نجتمع فيها، حتى وهو يمثل الاهتمام بي، كنت أمثل بدوري أنني مغفلة وأصدّقه، حتى فاض الكيل، سأهدّده أنني سأفضحه عندها، بل وعند حماتها وزوجها، ليرضى أن ينام معي مرة واحدة فقط فأنسب الطفل له، وليحدث ما يحدث بعدها.
نورا؟ أحرقت صدري تنهيدة ثقيلة،لم أستطع إزاحتها من رأسي، لو كان بمقدوري أن أكره أحدًا لكرهتها، لم تكن حالها وحال أسرتها أفضل مني بكثير، ومع ذلك أشعر على الدوام بأنها مختلفة عني، ربما لأنني لم أعرفها إلا بعد أن غرقت في النعيم وتزوجت ياسين، فبدت كأنها «بنت ناس وعينها مليانة» طوال عمرها. صحيح أنني كثيرًا ما كنث أدّعي أمامها أن حالينا

متشابهتان، كثيرًا ما أحاول أن أقنع نفسي بذلك، لكن كيف يمكن أن أنسى أن الدنيا أنصفتها وانحازت لها ومنحتها الثراء الذي أتوق له، ولو مع الوحدة والزوج البعيد، على الأقل ستربي ابنها في العز، وليس كابني الذي سيرث الفقر مثلي إن رأى الدنيا يومًا.
امثل مرة أخرى، امثل أنني لا أفهم، امثل أنني احِب واحَب، امثل أنني سعيدة، امثل أنني أعيش.
نمت ليلتها وأنا اعدّ وأرتب كل تفصيلة لابني وأتحسر على مستقبله، وفي الصباح ابتسمت بمرارة.. ابني؟!
«حكمتك يا رب.. لم يُكتب لي إلا الذل والظلم!»
غمغمت نائحة وأنا أعُدّ ما بقى معي من مال، وأدركت أن عليّ معاودة الذهاب للحاجة ثريا، رغم اللوم والتعنيف الذي سآخذه لغيابي كل هذه المدة.
جلست بصمت أتلقى كل إهاناتها، وتذكيرها لي بكل خير فعلته معي، وكل قرش أعطته لي وعدم صوني للجميل:
ـ شهر يا جاحدة يا قليلة الأصل أتصل بك ولا تردين؟! ألم يطمر فيك كل ما فعلته لك؟ كل ما أعطيته لك؟ ثوبك هذا من خيري! من ملابسي التي أعطيها لك! لحم أكتافك من خيري! ومن الثلاجة التي تنهبينها كل يوم وأنت هنا! أتظنين أنني لا ألاحظ أكياس الفستق والحلوى التي تنقص؟ لا، أنا واعية لك جدًا، لكن قلت مسكينة، محرومة، لن أحرجها! وبعد كل هذا لم يطمر فيك.. جاحدة كالقطط تأكل وتنكر!
صبرتُ حتى فرغت من إهاناتها، فاستسمحتها وأخبرتها أنني كنت مريضة، وبقيت واجمة صامتة بقية اليوم، أساعدها في إعادة صبغ شعرها، وطبخ بعض الأكلات والحلوى التي تحبها من يدي.
نورا من لاحظت وجومي واهتمت، انضمت لي في المطبخ ووقفت بصمت في البداية، قبل أن تسألني:
ـ هل أنت بخير يا فاتن؟
هززت رأسي بسرعة ثم فرت الدموع من عيني، لم أبك ولا مرة منذ أن حدث كل ما حدث مع وليد، لم يهتم أحد بسؤالي عن حالي، ولا حتى أمي التي لا تعي ما حولها، لم يربت عليّ مخلوق في أي مصيبة حلت بي منذ موت إسلام، الذي استكثرته الدنيا عليّ وأخذته مني، لم يكن لدي أحد يهتم بي ويطيب خاطري، لماذا تعز عليّ الراحة كبقية الخلق؟ انفجر كل بكائي وقهرة قلبي وأنا أهتف معترفة:
ـ أنا في مصيبة يا نورا! مصيبة!
أخبرتها كل شيء، تكلمتُ وتكلمتُ والصدمة والأسى على وجهها، تربّت عليّ وتواسيني بكلمات مشتتة مضطربة.
فرق بيننا الزلزال والزمن وتغيرت الأحوال ونسيت ما حدث، بدأت حياة جديدة، لا اصدّق أن اللـه اختارني لأكون من الناجيين، وأنه برحمته وفضله منحني فرصة للتوبة؛ وعمرًا أقضيه

في التكفير عن ذنبي الكبير، اخلص في عبادتي وطاعتي له، لا أترك بابًا للخير إلا وسعيت له، لم تهمني الدنيا التي تغيرت أو من يخافون الكدمات، كنت أمنح نفسي لل-ه وأعرف أنني لن أحصل على الراحة والخير إلا من هذا الباب، بعد أن عميت عنه سنوات طويلة من عمري، رضيت يا رب.. والل-ه رضيت وعَرف قلبي أخيرًا معنى الرضا، عرفت أنه ليس كلمة يرددها لساني والقلب مخنوق ويائس، بل نور وتسليم يملآن النفس، وإخلاص يضيء طريقي.
حتى رأيتها اليوم، وعادت كل القصص والمعاصي القديمة لذهني، لكنني لم أرها بوضوح، بل لمحتها فقط.. ربما لا تكون هي!
ويلك يا فاتن! أستكذبين على نفسك أم على خالقك؟ إنها هي!
يجب أن أعود للمستشفى لأبحث عنها، فظهورها ليس بالضرورة معناه أن الل-ه لم يغفر لي، كل هذا الذعر من رؤيتها لأنها ذكرتني بالماضي، لكن ربما وضعها الل-ه في طريقي لتكون عونًا لي الآن على طاعته، يجب أن أبحث عنها وأخبرها ما أعرفه، وليكن ما يكون.

٨

أحضرت لي سهير، قبل أن تمرض، كمبيوتر محمولاً طلبته منها، قالت إنه من ضمن التبرعات التي تأتي للمرضى، فلم تجد عناءً في جلبه لي.
كنت أتنقل بين مواقع الإنترنت، أقرأ كثيرًا في علم النفس الجماهيري، ودور قوة الإيحاء النفسي، كنت أبحث، أحاول أن أفهم ما حدث فتغيّر العالم. لم أشأ أن يتغيّر، رغم كل سخطي وكرهي له اكتشفت أنني لا أريده أن يتغيّر.
قرأت في أحد المواقع مقالاً يقتبس من جوستاف لوبون في كتابه «سيكولوجية الجماهير»:
«ففي بعض الظروف المعنية، وفي هذه الظروف فقط، يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة، مختلفة جدًا عن خصائص كل فرد، يشكله. فعندئذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد، وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه. وعندئذ تتشكل روح جماعية، عابرة ومؤقتة دون شك، لكنها تتمتع بخصائص محددة ومتبلورة تمامًا. وعندئذ تصبح هذه الجماعة ما أدعوه بالجمهور المنظم؛ تصبح جمهورًا نفسيًا (سيكولوجيًا). إنها تشكل عندئذ كينونة واحدة، وتصبح خاضعة لقانون الوحدة العقلية للجماهير».
أيعقل أن يكون هذا ما حدث منذ الزلزال الذي ضرب عدة دول في العالم في نفس الوقت؟
لا يعرفون شيئًا عني طوال هذه السنوات، سوى أنني من القلائل الناجين من انهيار أحد المستشفيات، بعد إصابتي بطلق ناري في كتفي، مع صدمة عصبية. وساءت حالتي أكثر وهم يخرجونني من بين الأنقاض لإصابتي بنزيف في المخ، على الأرجح هو السبب في تلك الغيبوبة مع كل ما مر بي قبلها.
انتظرتُ حتى دخل الممرض الذي يساعدني في التنقل؛ لأعود لمقعدي المتحرك وأخرج للشرفة. لم يعد عماد يتردد على غرفتي منذ حديثنا الأخير قبل العاصفة الحمراء، لم أتعمد إغضابه، لكن سذاجته استفزتني، فقد أحرزت تقدمًا ملحوظا في جلسة العلاج الطبيعي الأخيرة، فعلق مبتسمًا وهو يساعدني على العودة لفراشي:
ـ أرأيت؟ الاستغفار له مفعول السحر!
فهتفت به:
ـ توقف عن هذه السذاجة، كل ما تعيشون فيه وهم! إيحاء نفسي! جنون جماعي! وهمكم هو ما صنع العقوبات والكدمات وكل تلك الأفلام! مجرد مرض وستشفون منه عاجلا أو آجلا!
بدا الفزع على ملامحه قبل أن يردّد:
ـ أستغفر الله العظيم! لن أتحدث معك في أي أمر ثانية، فحديثك يؤدي للتهلكة!

وتركني بعد أن أنهى واجباته بآلية.
لا يفهمني، لا شيء سيغيّر هؤلاء البشر، التكيّف طبيعة بشرية، وفي بلدنا على الأخص فاقت كل الحدود، لن ادهش لو تعرض بلدنا لكارثة فضائية، أو وباء فتاك، ثم تعود الحياة إليه بعدها كأن شيئا لم يكن، ويواصل الناس أعمالهم وحياتهم، ليس بسبب طيبتهم أو تاريخهم وكل هذه الشعارات المستهلكة، بل لأن الخراب جزء أصيل في تكوينهم، والقبح لا يُرى في عالم قبيح. لا شيء تغيّر، كل ما هنالك أنهم تكيّفوا مع الوهم الذي يعيشون فيه، كما يتكيفون كل مرة مع أسوأ الأوضاع وأكثرها مهانة، لكن لا شيء تغيّر.
يومها.. في الفجر بدأت العاصفة، ارتجّ قلبي وإن أنكرت، جلست عاجزًا فزعًا في مكاني، المبنى يتخبط، والشرفات تبدو كأبواب الجحيم تطل على سماء حمراء، ورياح تعمي الأبصار، لا يُخفي صريرها أصوات الابتهالات المرتجفة والبكاء المكتوم، أهي النهاية؟ هل ستصعد روحي لتلك السماء الغاضبة وينتهي أمري؟
عرفت أنه لا، بعد ساعات من رعب مميت، أخيرًا هدأ كل شيء، وبدأ العاملون في إصلاح ما انكسر وتنظيف ما اتسخ وهم يرددون الأدعية والاستغفارات، بدأت أشعر أنني أتذكر، ذلك الرعب الذي مسني في العاصفة ذكرني برعب قديم، وبتفاصيل اختار عقلي أن يحجبها عني طويلا، واخترت أنا أن أبقى غير مصدق، غير متأكد حتى يغمرني اليقين.
فتحت شاشة الجهاز لأواصل بحثي وقراءة أخبار السنوات الماضية، أريد أن أجد معنى كل ما يحدث لي.
لمحت وجهي في الشاشة السوادء.. لم تكن المرة الأولى.. لكنني لم أعتده بعد، أحقا مرت ست سنوات؟
كنت نحيلا لدرجة الهزال، رغم أنهم يؤكدون لي أنني أفضل كثيرًا عما كنته منذ ثلاثة أشهر، التقطت ملامحي الأعوام الماضية دون مراعاة أنني لم أكن شاهدًا عليها، غزت شعري خصل بيضاء وانتشرت.. لكنني أشعر أنها ليست بسبب السنوات، بل من الليلة التي سبقت الغيبوبة.
كان من الصعب الآن ألا أذكر تفاصيل تلك الليلة.. المشهد الذي يتداعى لذهني يحيرني، لا أدري إن كان حقيقة أم خيالا.. نورا كانت في شقتي، أذكر هذا بوضوح، ثم تختلط الصور.. أسمع صوتها.. كلامي.. أشعر بأنفاسها.. بلمساتها على جسدي، أراني تسلقت شجرة ووصلت للسحاب، فتزداد حيرتي، لا أعرف.. لا أذكر ماذا جرى بيننا ليلتها.
كم أشتاقها.. وأشتاق ابنتي، هل يمكنني أن أراهما يومًا؟ هل ما زالتا.. على قيد الحياة؟
كان يجب أن أصدّق أنني سأراهما مجددًا، كي أستطيع الشفاء والخروج من هنا، كي أتمكن من مواجهة خوف غير مألوف يدبّ في قلبي وأنا أراقب كدمات غريبة، بدأت دون سبب الانتشار في جسدي.

٩

«صباح الخير يا نور عيني.. لا بد أنك نائم الآن، لكن أحببت أن تكون رسالتي أول شيء تراه، كلمني عندما تصحو.. في انتظارك».
كانت تلك أول رسالة وجدتها على هاتف حماتي الحاجة ثريا. كان الشك قد ملأني بخصوص الشخص الذي طاردني ولاحق فاتن وخدعها، حتى أخذ منها ما يريد وهرب. لم يتبق طرف آخر قد ينقل معلومات عني أنا وفاتن معًا، وبعد الصدمة الأولى لرؤيتي تلك الرسالة المرسلة من حماتي لذلك الشاب وليد، أخذت أقرأ بقية الرسائل، وجدتها تخبره كل شيء يحدث في المنزل، تعرفت عليه قبل وفاة حمي بشهور، يُهوّن عليها طول انتظار موته حتى تحصل على ميراثها ويبدآ حياتهما معًا.
حكى لها أنه شاب عاطل، في الثلاثين من عمره، لا يجد إلا أحقر الأعمال، فيعمل شهرًا ويتوقف عشرة، ويحلم أن يفتتح مشرعه الخاص، محلاً كبيرًا للأجهزة الكهربائية الحديثة، لكنه لا يملك ثمن حلمه، بدا أنها تعرفت عليه من مجموعة كانت تدعم تيار العِزة، قبل أن ينقلب عليهم فتنقلب معه، وما لبثت أن اقترحت عليه أن تموّل له مشروعًا.
يوم وفاة حمي؛ وجدت رسالة تخبره فيها أنها أخيرًا أصبحت حرة، كانت رسالة عجيبة مليئة بالسعادة والمرارة: «أخيرًا اختفى معتز من حياتي، اختفى بحلوه وشره.. ولم يكن حلوه بالكثير، في أواخر أيامه كان يطلبني كثيرًا لأجلس معه، كأنه تذكر فجأة أنني زوجته، وكأنه شخص آخر غير الذي نسي وجودي، وعاملني كأنني مجرد كرسي أو ڤازة في البيت، واجهت نفسي بعد عام واحد من زواجنا بأنه لن يجعلني سعيدة، وأنه ليس الرجل المناسب لي، ليس من بيئتي ولا أحلامي، لكن كان أبي قد منح كل أمواله لزوجته الجديدة ولا يوجد أمامي غير معتز لأحافظ على نفس مستوى معيشتي، رأيت من جرب الفقر في عائلتنا ولم أرغب أن أكون مثلهم. استمريت معه لأجل الحياة المرفهة وطبعًا الأولاد، والجفاء يزداد بيننا، تخيّل هذا الفلاح زهدني في زهو شبابي وأنوثتي، فقط لأنه سمعني مرة أخبر إحدى صديقاتي عن نفوري من معاشرته، كرهته أكثر، وأدركت أنه كرهني، ويتعمد إغضابي بكرمه الغبي مع أخيه الفاشل الذي أضاع إرثه كله في مشاريع خائبة مثله، تراكم بيننا كل هذا حتى مرض وعاد تعلقه القديم بي، بعد أن ترك شبابي ينسكب كل يوم على أرضية هذا المنزل، ولم يترك لي إلا الوحدة والاحتياج، تأخر كثيرًا.. تأخر حتى رفضت أي شعور بالتعاطف معه، لن أتعلق به وهو يموت، لن يورثني مرارة موته، لذا كان عليّ تجاهله قدر ما أستطيع حتى يرحل عن دنياي».
كانت أول مرة أعرف سر كرهها لحمي، حاولت أن أفكر فيها كزوجة، كامرأة، حاولت أن أتعاطف مع ما عانته، لكن في خضم هذه الصدمات لم أستطع.

وجدتها أرسلت له نسخة من رسالة امرأة تدعي «وردة الفرودس» تحذرها منه قائلة:
«أرجوك يا حاجة ثريا حكمي عقلك وابتعدي عن هذا الشاب الذي لم يشهد له مخلوق نعرفه بحسن الخلق، والبعض يؤكد أن هذا ليس حتى اسمه الحقيقي، فأرجوك لوجه الل-ه ابتعدي عنه، وأعتذر عن إزعاجك».
فأخبرها وليد أنها امرأة حقود؛ تحبه وتسعى وراءه وتريد التفريق بينهما، وصدّقته حماتي بسهولة، وأخذت تنعت المرأة بأقذع الشتائم.
وجدت صور فرحي.. صور تجمعاتنا التي كانت فاتن تلتقطها لنا، بحثت كثيرًا حتى وجدت الجزء المتعلق بي في رسائلهما، بداية من حديثها عن عدم رضاها عن زواج ابنها بفتاة وضيعة مثلي، كانت ترتدي أسمالاً بجنهيات معدودة وابنها من جعلها ترتدي الماركات العالمية، تحمد الل-ه على أنه لم يأخذني معه للخارج لأنني جاهلة وسأهدر أمواله على طلباتي التافهة، ونهاية بشكها أن هناك شيئا بيني وبين زياد. تخوض في أدق خصوصياتي، تخبره أنه لا يمكن لزوجة شابة أن تتحمل هذا الحرمان الطويل، وأنها تشكّ أحيانا في سماع صوت غلق الباب في وقت متأخر من الليل، فتدرك أنني ألجأ لحضن زياد، وأخون ابنها الغافل. أكد لها ذلك الصعلوك شكوكها وطلب رقمي حتى يستطيع بواسطة صديق له في شركة الاتصالات من مراقبة رسائلي ومعرفة مكالماتي، ليأتيها بالدليل على وجود علاقة بيني وبين زياد، صدقته هي كالمعتاد وأعطته رقمي بعدما صورتني له كفتاة سهلة رخيصة.
أخبرته كذلك بكل شيء عن فاتن، فقرها وحرمانها وتوقها للزواج، ومحاولاتها للجمع بينها وبين زياد لأنهما من نفس المستوى الوضيع. تتباهى بصبرها وعفتها، وأن لا فاتن ولا أي امرأة غيرها تستطيع تحمل تلك الحياة الجافة وهذا الحرمان مثلما فعلت.
«قضيت عمري أتحمل كل شيء لأجل ولديّ ماجد وياسين، لكن لم يشعرا بي أو يقدّرا ما فعلته لأجلهما؛ تزوج كل منهما بعقربة وسافر وتركني وحيدة، انتظرت مكافأة صبري وتضحيتي من الل-ه، فلم آخذ سوى المصائب من كل ناحية، لم ينصر الل-ه من أيّدتهم، لم يقف معهم، ولا معي، كل الطموح والأموال طارت في الهواء.. في التراب، كأنني يجب أن أخسر كل شيء! والحثالة مثل نورا تأخذ الزوج والابن والمال، وعشيقًا تتسلى معه، أتظن أنني سأدعها تفلت بكل هذا؟ على جثتي! لن آخذ تعويضي في الدنيا إلا بيدي، معك أنت يا حبيبي.. مكافأة صبري وتضحية العمر».
أرسلت له كذلك صورًا لها تأخذ رأيه في لون شعرها الذهبي الجديد، فيغرقها في كلمات الغزل والعشق ويخبرها بمدى شوقه لها منذ لقائهما الأخير، وحضنها الدافئ الذي يصبره على فراقها، شعرت بالغثيان، لم أصدّق، تذكرت خروجاتها الأخيرة المتعددة، زينتها المبالغ فيها وتأنقها الزائد، ولم أستطع استيعاب الصورة.
قرأت بعين زائغة رسائل أخيرة يطمئنها فيها على مشروعه الذي افتتحه بمبالغ هائلة حوّلتها له، محل كبير وفخم لبيع الأجهزة الكهربائية كما أراد، يعدها أنه سيرد لها كل قرش دفعته بعد أن يتزوجا.

دار رأسي حتى لم أعد أستطيع قراءة المزيد، رغم أنها ما زالت نائمة في غرفتها ولم تنتبه لتسللي وبحثي في هاتفها، كان كل هذا أكثر مما توقعت. تصورت أنها تحكي لمجموعة ما، أو صديقة غير أمينة، أخبارنا بحسن نية، لكن قصة الغرام المشبوب تلك مع شاب في نصف عمرها كانت أبعد ما يكون عن تخيلي!
عدتُ لغرفتي مشوشة، مضطربة، أخاف من سوء ظنها وكرهها لي، أكاد أجن لأخبر أحدًا بما عرفته، هل هي عمياء لهذا الحد؟ ألا ترى كيف يخدعها؟
تناولت هاتفي أتصل بفاتن، ثم ترددت، خفت أن تحدث بينها وبين حماتي مواجهة قاسية، وأتورط أنا في الأمر، اتصلت بأمي، أخبرتها بكل شيء قرأته، لم تحزن إلا على استعجال ثريا مكافأة صبرها، العبادة الوحيدة التي يؤديها الإنسان وهو ينزف وجعًا.
نصحتني ألا أواجه حماتي الآن حتى أزورها في أقرب فرصة لنفكر معًا فيما سنفعله، لكن يجب أن تعرف فاتن من السبب في كل ما حدث لها، نعم يجب أن أجدها.
انتبهت في مكاني فجأة وأفقت من نوبة الذكريات، والإحباط يملأني لمرور عدة أيام عليّ في المستشفى دون أن ألمح فاتن مرة أخرى، كل يوم أفكر مليون مرة في التراجع والسفر للمزرعة والابتعاد عن كل شيء، فلم أستطع معرفة ماذا كانت تفعل هناك ومن تزور، وبدا كالعادة لا شيء يقودني لأي شيء.
تعالت طرقات غير متوقعة على باب منزلي فتسمرت ذعرًا، كانت الثامنة مساءً، ولا أتوقع أحدًا الآن ولا حتى رضوى، فقد مرض زوجها الأيام الأخيرة وانشغلت معه.
اقتربت بحذر من الباب، فأدهشني وجودها، فتحت الباب لأجد بجانبها مجموعة من النساء اللاتي أتين لاقتيادي لبيت التوبة من قبل، قبل أن يتأكدن من خلو جسدي من الكدمات الزرقاء. ارتعد قلبي، لا أعرف ماذا يُردن مني هذه المرة.
ـ سامحينا أرجوك، نتوسل إليك!
بدأت إحدى السيدات، وتابعت رضوى بعينين محمرتين من الدموع:
ـ الشيخ خالد اعتكف في بيته بعد أن أصابته كدمة زرقاء كبيرة في وجهه، والكل يعرف أنها لا تصيب إلا من ارتكب ظلمًا أو إثمًا كبيرًا، وزوجي أيضًا.. زوجي امتلأ جسده بالكدمات ومرض بشدة.. لا تعرفين كم هو مريض، كل هذا بسبب الشيخ خالد وظلمه لك، سامحينا.. سامحي زوجي أرجوك كي يسامحه الله ويعفو عنه.
ـ اللهم استرنا جميعًا يا رب ولا تفضحنا، رحمتك يا رحيم!
ـ بالله عليك يا بنتي!
ـ الله يرضى عنك!
ـ لا تدعي علينا، الله يبارك لك في ولديك!
نقلت نظري بينهن ذاهلة وضربات قلبي تتصاعد برهبة، إلى أن وجدت صوتي:
ـ لم أدع عليكن.. لم أدع على أحد، ولا الشيخ خالد، سامحكن الله، أنا لا أريد إيذاءكن، والله شاهد بيننا، أسامحكن ولا أريد سوى أن تتركنني مع طفليّ أربيهما فحسب، لا أريد

أكثر من ذلك.
ـ الحمد لل-ه، ربنا يريح قلبك!
ـ ربنا يحميك!
اقتربت مني رضوى تمسك يدي والدموع ترتعش في عينيها:
ـ ادعي لزوجي أن يسامحه الل-ه ويشفيه، ادعي له!
قلت بتعاطف:
ـ ربنا يسامحه ويشفيه ويعود لك أفضل مما كان.
هتفت أكثر من امرأة:
ـ أنت مظلومة ودعاؤك مستجاب بأمر الل-ه، ادعي لنا واغفري لنا ما فعلناه!
ـ وأنا أيضًا ادعي لي!
ـ ادعي لأولادي!
ـ ادعي لشفاء أخي، لا تبخلي علينا ببركة دعائك!
انقلب المشهد فجأة بصورة أربكتني، ملأ التوسل والتذلل وجوههن، رددت متوترة «حاضر.. آمين»، واستأذنتهن أن ينصرفن لأنني متعبة، أغلقت الباب خلفهن وكلي يرتعش، جربت الشعور بالظلم مرة، وكان أهون كثيرًا من الإثم الذي أشعر به الآن، أن يظنك الناس أفضل مما أنت عليه، أن تشعر داخلك أنك أقل وأصغر بشدة من الهالة التي يضعونها حولك، ثقلت روحي.. اختنقت! يا الل-ه.. تعلم سبحانك أنني لم أدّع توزيع صكوك الغفران.. لم ازكّ نفسي.. لم أتجرأ على حكمتك باستجابة دعائي، وحدك تعلم صغري وضآلتي.. وحدك تعلم ذنبي، لم أكن أبدًا أفضل من أي أحد، كنت الأضعف.. الأجبن! فقط
لو يعلمون.

١٠

قطعت طريق العودة من الإسكندرية إلى القاهرة بسرعة صاروخية، أكره السفر، وعلامات الطريق البيضاء، المستفزة في تكرارها. ما لم أحسب له حسابًا أن تكون سلمى هناك مع أمها وابنتي، صدمتني رؤيتها، لكن لم أنزعج، استقبلتني بوجه ودود أفهمه، وأفهم معنى نظرة الانكسار في عينيها، كانت تريد أن تعود لي.

أعدّت لي كل ما أشتهيه من ألوان الطعام، قامت بدور الزوجة المهتمة والأم الرؤوم على أكمل وجه أمام عيني، فلماذا لم يلن قلبي كالمعتاد؟

كان شعوري أقرب للفرجة.. المشاهدة دون تأثر، حتى عندما جلست معي وحدنا على انفراد بعد الغداء، شبّكت يديها تجلس لصيقة بي، مترددة الكلمات..

تأملت يديها، كفيها المربعتين وأظفارها المطلية دومًا المربعة الشكل، للمرة الأولى أدرك أنني أحفظ شكل يدي نورا، ناعمتين مسحوبتي الأطراف بشكل أنثوي مغرٍ، أظفارها دائمًا نظيفة غير مطلية.

ـ لا أدري كيف أبدأ معك الكلام، كل ما سأقوله سمعتِه من قبل.. أعرف، لكن هذه المرة مختلفة صدقني، نحاول مرة واحدة أخيرة لأجل زينة.

سمعتها أيضًا من قبل، لأجل زينة؟ كم حاولنا من قبل ومررنا بنفس المراحل؟ الانكسار.. القلق.. الخوف.. العودة.. التوتر.. الغضب والاتهامات.. الطلاق.. أين زينة من كل هذا؟!

وضعت كفها على ساقي بنعومة تنظر لعيني، سكنتْ أحاول الشعور بها.. أين مشاعري نحوها؟ لم أعد أشتهيها.. لا أدري متى ولا كيف، فهي كما هي، سلمى الجميلة الفاتنة بعينيها الساحرتين وجسدها الرشيق، كيف فترت مشاعري نحوها وانتهى الشغف؟ أيمكن أن أعيش حياتي دون شغف؟ دون أن أشعر بالسعادة معها؟

حياة روتينة عادية لأجل الأطفال، والشكل أسرة سعيدة؟

اكتشفت فجأة أنني لم أعد أتحمل أن أمضي بقية عمري دون أن أكون سعيدًا.

زفرتُ ونهضت واقفا:

ـ زينة.. هي من جئت لأجلها، يجب أن تقنعي أمك بالعودة للقاهرة، الإسكندرية صارت خطرًا الآن، نعم الشتاء انتهى، لكن غرقت معه المزيد من الشوارع والأحياء كالسنوات الماضية، ولن أنتظر حتى يتهدّد ابنتي خطر الشتاء المقبل، يجب أن تغادر فورًا!

ـ ونحن يا زياد.. ألن تمنحنا فرصة؟!

قلت برفق:

ـ لا أظن أنه تبقت لنا أي محاولة يا سلمى، المهم البنت الآن، أنا لن أسافر كل أسبوع لأرى

ابنتي.
التمع الغضب في عينيها وابتعدت بخطوات قوية، هرعت إليّ زينة بعد قليل، فأمضيت معها لحظاتي الأخيرة قبل المغادرة.
وصلتُ المنزل في بداية المساء وركنت السيارة في الباحة المخصصة، قبل أن أتجه للداخل لمحتُ نورا، كانت تقف تنظر تجاهي كأنها تراقبني منذ لحظة وصولي.. وحمزة يلهو أمامها، ترددتُ ثم اقتربت منها.. كم أشتاقها! لم أستطع إلا أن أقترب، بخاصة مع النظرة الممزقة في عينيها.
توقفتُ أمامها، لم تكن نظرتها ممزقة فحسب، بل مليئة بالكلام أيضًا، فبدأتُ:
ـ لم أرك منذ وقت طويل.. كأنك تبخرت من المنزل.
غضت بصرها قليلاً وقالت بخفوت:
ـ أنا هنا، هل.. كان لديك عمل اليوم؟
قلتُ أتعمد كسر هدوئها:
ـ لا، كنت مع زوجتي وابنتي، أقصد زوجتي السابقة.
بهت لونها، وشعرتُ بنصر مُرّ.. تمتمتُ وهي تشيح بوجهها:
ـ جميل!
انفجرتُ:
ـ كنت أرى ابنتي! جدتها المجنونة أخذتها إلى سموحة الآن! الإسكندرية! أتصدقين هذا؟ الكل يهرب منها وهي تذهب إلى هناك! هكذا فجأة تذكرت أن فرع مطعمها الرئيسي هناك، وقررت أن تشرف عليه بعد أن تركه المدير المسؤول، وغادر البلد كله! طبعًا، ومن المجنون الذي يبقى هناك في هذه الظروف؟ بيتها فوق المطعم مباشرة.. مطعم الأسرة الراقية! هه! وكأنها تعرف معنى الأسرة هي وابنتها! لكنني سأعيدها بأي طريقة، أعطيتها مهلة شهرًا تدبر أمرها وتعود للقاهرة، وإلا سآخذ ابنتي رغمًا عنها!
تماوج التعاطف والحنان في موجات ذهبية ملأت عينيها:
ـ لا تقلق.. إن شاء اللـه ستكون بألف خير، بالتأكيد جدتها لن تعرّضها للخطر أبدًا.
تنهدتُ وألم عميق يملأني.. ألم لأجل ابنتي.. ولأجل الواقفة أمامي.
لم أكن أرغب في أن أكون سعيدًا فحسب، كنتُ أرغب في أن أكون سعيدًا معها هي.. هي فقط.. لا امرأة أخرى.
خنقتني مشاعري وتوتري ويأسي، ولفني الإرهاق، تمتمت أنني في حاجة للراحة، وابتعدتُ صاعدًا لشقتي، لو بقيت ثواني أخرى لاختطفتها بين ذراعيّ، القي تعبي ووجعي فوق صدرها دون أن أهتم لأي شيء.
كنتُ في حاجة يائسة إليها.. حاجة لن ترتوي إلا بها.. كأنها وصفة سحرية أملك سرها وحدي.. أعرف أنني لن اشفى إلا بها.. وأعرف أنني لن أحصل عليها.
استلقيت فوق فراشي منهكا مغمض العينين، طافت أفكاري حتى كدتُ أراها تحلق خلف

جفنيّ، ورأيتها هي.. أحسست وجودها.. شعرت بكفيها على ظهري.. تضغطان أوتاري المنهكة، لتسري فيّ بهجة رقراقة، تمسدان تلك المساحة الموجوعة في روحي.. وتملآنها دفئا، تزيلان تشنجات الشوق المؤلمة.. تنثر علاماتها البيضاء على جسدي كما تشاء وتتبعها بلمساتها للأبد.. فقط تترك أثرها عليّ.
أردتها أن تختار الضلع الذي خرجت منه لتسكن فيه.. حواء قلبي كانت.. أشعر بها في دمي.. في كل وريد.. كل خلية في جسدي.
حواءٌ هي.. لكنني لست بآدم، سقطت من الجنة دونها؛ فأخذتْ أحاول الوصول إليها.. تشبثت بأغصان الشجر.. والتفت يداي حول فروعها..
«إنها مُحرمة عليك!»
تردّد الصدى، وحلق طائر بعيدًا يرفرف فوق السحاب، نظرتْ له وأردت مثله غزو السماء.. أردتْ أن أرى ويملأني اليقين.
صعدت شيئا فشيئا وارتفعت.. حتى زلت قدمي وتسارعت خفقات قلبي بعنف أهوي لأسفل، أهوي كحجر في بركة ساكنة، فثارت دوامات الماء حولي وأخذت تتسع وتتزايد بلا نهاية.
استيقظت مضطرب الأنفاس والدق العنيف مستمر في رأسي، استغرقت ثواني لأدرك أنه جرس الباب.. وثواني أخرى لأجد الرغبة في التحرك والخروج من غرفتي، أتساءل من هذا الزائر المفاجئ، فتحث الباب وتوقفت أنفاسي..
ـ أريد أن.. أتحدث معك في أمر هام يا زياد.. أمر لا يحتمل التأجيل.
قالت نورا بتوتر جليّ، أفسحت لها لتدخل بيتي دون أن أتمكن بعد من الكلام، أغلقت الباب ونظرتْ إليها.. حوائي أتت إليّ!

* * *

في الأحوال العادية لا أجرؤ على الاقتراب منها، كل الرسائل التي تصلني منها تجبرني على وضع حد واضح بيننا، محروم فيه من الاعتراف، من التصريح، والآن تعطلت كل الرسائل، لم أشأ أن أستقبل منها أي قواعد وهي كانت توًا في أحلامي، في دمي وجنّتي وأوردتي! ثم أنظر إليها، تقف أمامي بكل هذا الارتباك والتوق الصامت، يُخدّرني لمعان عينيها، فيستجيب لها أطهر جزء في قلبي، وأجدني في قمة اشتهائي لها، أرغب في منحها الحب والأمان، مُنكِرًا الحرائق التي تلتهمني، لأبقي عليها هي.
ـ عرفت من الذي كان يتصل بي ويلاحقني.. عرفت من أين أخذ كل معلوماته عنا!
غيرت مسار أفكاري فجأة بصوت مرتبك، أثار الأمر اهتمامي:
ـ كيف؟ ماذا عرفت؟ هل اتصل بك ثانية؟
همست بفم مرتعش:
ـ لن تصدق.. إنها الحاجة ثريا نفسها التي تنقل أخبارنا، أنا لا أصدق ما رأيته على صفحة رسائلها حتى الآن، كل ما يحدث في المنزل يوميًا تحكيه.. صور فرحي.. صور ابنيها وأحفادها.. صور تجمعاتنا! كل شيء!

ـ ولماذا تفعل ذلك تلك المجنونة؟! هل فقدت عقلها؟! ولمن تحكيه؟!
شبكت يديها لحظة، ثم عقدت ذراعيها حولها قبل أن تقول:
ـ لشاب تعرفت عليه، شاب بينهما.. علاقة حب!
ـ علاقة ماذا؟!
هتفتْ بصدمة أتقدم نحوها، فتراجعت خطوة وقالت بتوتر:
ـ كما سمعت، رسائل غرامية صريحة متبادلة بينها وبين شاب في الثلاثينات، كل تصرفاتها كانت غريبة.. ومريبة، لكن لم أتوقع أن يصل الأمر لهذا الحد. واضح جدًا أنه يستغلها، فقد حوّلت إليه الكثير من المال لأجل مشروع يقوم به، كانت تعرفه طوال هذا الوقت.. حتى في أثناء مرض عمك معتز رحمه الله، كانت تتركه يتألم ولا تسأل عنه، بينما هي مشغولة بتبادل كلام الحب مع ذلك الشاب! أنا لا أصدّق
يا زياد! لا أصدّق أن تكون بهذه الخيانة والقسوة والغباء، حتى تظن أن شابًا بهذا الدنو يمكن أن يحب امرأة في عمر أمه!
انفجرتْ بضحكة جافة قصيرة وقلت بازدراء:
ـ كنت متأكدًا أن نهايتها ستكون سوداء كقلبها!
هزت رأسها بتعاسة وقالت:
ـ الأهم من كل هذا.. فاتن.. نعم فاتن، ذلك النصاب تعرف عليها ورسم لها صورة مثالية عن نفسه وظروفه، كان يعرف كل شيء عنها بسبب الحاجة ثريا! فاستطاع أن يصل لها بسهولة، لم أكتشف الحقيقة إلا عندما أخبرتني بما يحدث معها، لم أستطع سوى تصديقها وهي تحكي مقهورة، ولم يبق إلا شخص واحد لأشك فيه، ففتحت حساب زوجة عمك على فيسبوك من هاتفها في أول فرصة سنحت لي، ورأيت كل شيء، لكن بعد ماذا! بعد أن خدع المسكينة واختفى!
ـ خدعها؟ إلى أي حد؟!
وكانت لهجتي تكشف الحد الذي أقصده، فأشاحت وجهها بخجل لم تسيطر عليه، لم تنكر، وتابعت مرتعشة الأعصاب:
ـ المهم الآن أننا يجب أن نواجه الحاجة ثريا بكل هذا، يجب أن تعلم حقيقة هذا النصاب، يجب أن تعرف المصيبة التي أوقعت فيها فاتن!
ـ هدّئي روعك فقط ولنأخذ وقتنا في التفكير، إنها امرأة مجنونة ومتبجحة وستنكر كل هذا.
ـ كيف أهدأ؟! فاتن تشك أنها حامل! كانت منهارة تفكر في قتل نفسها! كل هذا بسبب ثريا! يجب أن تعرف تلك المرأة إلى أي حد تسببت في إيذائها، وتعلم حقيقة قصة حبها المزيفة!
ـ فاتن امرأة كبيرة، وناضجة بما يكفي لتعرف من البداية إلى أي مدى يمكن أن تقودها علاقة كهذه، وعليها تحمل العواقب.
نظرت لي تصدمها قسوة كلماتي، فتابعث بلين:
ـ أنا فقط لا أريدك أن تتأثري بقصتها لهذا الحد. نورا، أريدك أن تفكري فينا نحن، في داهية

فاتن وثريا والحقير الذي خدعهما!
هزت رأسها بحزن وقالت:
ـ لا تقسُ عليها هكذا.. أنت لا تعرف ما مرت به!
ـ أعرف ما مررت أنا به! وأنت لا تهتمين أبدًا.. أنت تقسين عليّ أكثر من هذا مليون مرة!
همست بتهدج:
ـ لا.. لكن يجب أن أنهي موقفي مع ياسين قبل أي شيء!
ـ ومتى ستنهينه! هل اتخذت قرارًا أخيرًا؟! هل ستعودين له؟!
ـ ياسين سيأتي بعد غد، أخبرته أنني.. لا يمكنني الاستمرار معه، لم أنو أن أخبرك الآن، لكن...
أشرق النور داخلي، هتفت أقاطعها:
ـ حقًا يا نورا؟! ستتركينه؟ لن تستمري في هذا الزواج؟
هزت رأسها عاجزة عن لملمة شتاتها لتصوغ جملة، لكن عندما جذبتها إليّ لأضمها صرخت برجاء:
ـ لا تجعلني أندم لأني جئتك يا زياد! أرجوك.. أرجوك اتركني!
عذبتني!
ـ لماذا؟ لماذا؟! زواجك انتهى ولن تعودي له!
ـ ما زالت.. تسمى.. خيانة!
ـ لماذا تفكرين هكذا؟ أي خيانة تتحدثين عنها؟ هو الذي خانك! هو الذي لم يحببك يومًا!
ـ أعرف.. لكن لن أكون مثله.
ـ وأنا أحبك.. أتسمعينني؟ أحبك!
غمرت الدموع عينيها، ورأيت هزيمتها فيهما. قلت وأنا لا أدري قبلاً أنني يمكن الإدلاء بهذا الاعتراف:
ـ أريد أن أمضي بقية عمري معك، أريدك في كل لحظة في حياتي، أريدك أن تربي ابنتي.. أريدها أن تكون مثلك، أتعرفين أنني للمرة الأولى أدرك أن الرجل عندما يحب امرأة يرغب في أن تربي أولاده.. هي فقط، لا أحد غيرها.
خنقت الدموع صوتها، لكن إصراري على تطويقها كان يدفعها للمقاومة، أدرك أن مشاعرها تقتلها مثلي.
ـ مم تخشين يا نورا؟ ألا تحبينني؟ أخبريني.. هل تحبينني؟!
أمسكت جانبي رأسها بيديها:
ـ لا تضغط عليّ يا زياد أرجوك، لا تدفعني لاحتقار نفسي!
قلت بحنان:
ـ توقفي عن التفكير يا نورا.. أنا أحتاجك.. وأعرف أنك تحتاجينني، فلماذا نضيّع وقتًا من عمرنا لمجرد شكليات؟!
ـ أنت.. أنت ماذا تقول؟ ليست مجرد شكليات!

ـ انظري فقط لعينيّ وأخبريني، لا أريد غير هذا، قولي إنك تحبينني.. أريد سماعها منك.
انسابت دموعها وأغمضت عينيها.. أرى عذابها، أمسكت وجهها أجبرها على النظر إليّ، غمرني الوهن ما إن علقت في عينيها.. وهفا فؤادي إليها بألم.
همست بصوت يعكس عذابي:
ـ حتى لو لم أكن زوجة لرجل آخر يا زياد، ما زال هناك حلال وحرام، لا أريد أن.. أدنس ما بيننا.. لا تطلب مني غير ذلك!
خيّم علينا الصمت، ثم همست:
ـ أتظنين حقا أن الله ما زال يهتم لأمرنا؟
اتسعت عيناها ذهولا:
ـ ماذا تعني؟ كيف.. كيف تقول هذا؟!
ـ لأنه حقيقة، فكري معي.. كل ما حدث لك.. كل ما حدث معي، نحن وحدنا تمامًا يا نورا.. لا عقاب يطول الظالمين.. ولا حق يصل للمقهورين، هل تتذكرين متى حدث هذا بالضبط؟ أهو منذ موت والديّ وغيرهما في بيت الله.. في حوادث الحرم التي تتكرر بمعدل متزايد كل عام؟ أم قبلها بكثير؟ لا أعرف بالتحديد، لكن المؤكد أن الثورات لم تقم على ظلم الحُكام فحسب.. كانت أيضا صرخة إلى الله.. ها قد تحركنا وثرنا ونطالب بالعدل.. نحن هنا.. فأين نصرك؟ لماذا تركتنا؟ أوَتعرفين ما المخيف يا نورا.. أتعرفين؟ أنه لم يأتنا رد.. لم تأتنا أي استجابة.. غرقت بلادنا في الدماء.. كل البلاد شربت أرضها دم الأبرياء، دم الشباب والأطفال.. ولم يأت رد، صار الموت يحصدنا بحماس، قلت في البداية ربما هو موسم الجنة.. قدر لجيلنا أن يكون شبابه أكثر أهل الجنة، لكن الجنة بعيدة يا نورا.. لا نراها، نرى الموت.. نرى الظلم، ولا نرى الجنة. فهل نسيَنا الله؟ تركنا؟ نكره بعضنا البعض.. نقتل بعضنا البعض.. لأننا لا نستحق الحياة.. والمفزع أكثر أننا لا نستحق الجنة!
تسمرت في سكون شملنا، ثم ردت بشجن:
ـ لا تفكر هكذا يا زياد، أتوسل إليك.. لا تفكر بهذه الطريقة، أعرف ما تقول، أحس به أحيانا، لا أنكر، لكن شعورًا أقوى وأكبر يملأني، يخبرني أن كل ما يحدث لحكمة ما، لا يجب أن نعرف هذه الحكمة، الله رحيم يا زياد، لو فكرت بوضوح لرأيت الرحمة في كل قدر ظننته شرًا لك، ربما تزوجت ياسين فقط لأقابلك، أنت طلقت زوجتك وارتبكت حياتك، لتأتي هنا.. لتقابلني، أتظن أن ميتة والديك وغيرهما في بيت الله عقابًا حقا؟ إنها تكريم لكامل حياتهما في الدنيا والآخرة، ليست عقابًا أبدًا، حتى البلد يتغير، صدقني.. كل يوم تخرج مظاهرة مختلفة، رغم كل الخوف من الموت أو السجن، الناس ما زالت تتحرك يا زياد، لا يمكن أن يموت الأمل.
ـ الأمل مات منذ زمن ودفناه كلنا يا نورا، البلد يحتاج لإعصار.. وليس أملاً ليتغير، كل شيء ملأه العفن حتى قلوب البشر، الدنيا كلها تحولت لبركة راكدة.. ميتة، لن يحركها ألف حجر. لكنني أريد أن أنجو بقلبي، بك، نترك كل شيء ونبقى معًا، هذا كل ما يهمني الآن.. كل ما بقى لي، لا تذهبي يا نورا.. ابقي معي.. أحتاجك معي.. أرجوك!

ـ لا يمكن يا زياد.. لا أستطيع!
قالت بألم وهي تتخلص من ذراعي بإصرار، وتجري تجاه باب المنزل.
ـ نورا!
همست ملتاعًا لكنني تركتها، أعرف أنني يمكنني منعها بالقوة.. بالحب.. بمشاعر تصهر قلبينا، لكن تركتها لتحتفظ باحترامها لنفسها، لتتمكن من مواجهة نفسها في المرآة، من مواجهة ابنها، في تلك اللحظة فقط عرفت كم أحبها.

* * *

«انطلقت مسيرات متعددة من مناطق مختلفة، وفي نفس الوقت، كما تنقل الكاميرات يا سارة، وأنا الآن في مدينة نصر بالقرب من مظاهرة حاشدة، تعيد لنا أجواء يناير».
ارتبكت المذيعة في الاستديو بوضوح، وردت على المراسل:
ـ لا أعتقد أن تشبيهك صحيح يا ماجد، هناك فرق كبير بين عصور القمع الماضية والحرية التي نتمتع بها الآن، وعمومًا نشكرك وسننتقل لزميلنا حسام في رمسيس».
ضحكث هازئًا وألغيت صوت التلفاز، أتابع الشاشة المنقسمة لمربعات متتالية، تنقل كل منها مظاهرة من مكان مختلف.
اتصل بي علاء في الصباح يعرض عليّ الانضمام لمسيرته التي ستجول بالقرب من منزلي، واتصل بي محسن كذلك يكلمني بلهجة أكثر حدة لأشارك في هذا اليوم، لم أدر ماذا أقول، أخبرتهما أنني سأفكر..
وما زلت أفكر حتى الآن، أيكون هذا بداية الإعصار؟ ضربة الحجر التي ستحرك العطن؟ وماذا سنجني من تحريك العفن سوى مزيد من الوحل!
نظرت لهاتفي بتردد، ياسين على وشك الوصول في أي لحظة، كان هذا يقتلني! لا أريده أن ينفرد بنورا دقيقة واحدة، لكن كان عليّ الانتظار حتى تفاتحه في طلاقهما وتخرج سالمة من هذا البيت.
بعد مرور أكثر من ساعة على وصوله دون أن أتبين شيئا، لم أقاوم الرغبة في النزول إليهم لأرى ما جرى.
لم أتوقع أن تكون نورا من تفتح لي، شعرت بالراحة وأنا أراها بملابس الخروج، لكن وجهها كان باهتًا، ورأيت في عينيها فرحتها وخوفها لوجودي.
ـ هل كل شيء على ما يرام؟ أنت بخير؟
نظرت خلفها وقالت بصوت خفيض مهتز:
ـ نعم بخير، لكن تشاجرنا عندما طلبت منه أن يلتزم باتفاقنا النهائي على الطلاق، فجأة يريد أن يظل الوضع كما هو، لا أعرف ما الذي غيّر رأيه، اتفقنا قبل أن يعود، اتفقنا على كل شيء حتى إنني أخبرت أهلي، والآن يرفض أي نقاش!
ـ لا بد أنها العجوز المجنونة من أقنعته بتعقيد الأمر، إنه لعبة في يدها طوال عمره، أين هو الآن؟

ـ في الغرفة مع حمزة.
دخلتْ، وقبل أن أغلق الباب رمقتني بقلق:
ـ ليس من صالحي أن تتدخل يا زياد، إن كنت تنوي هذا.
ـ أنا خائف عليك يا نورا، لا أريد تركك وحدك معهما.
غمر امتنان دافئ نظرتها، وقالت:
ـ سأعود لبيت أمي الليلة، أخبرته بذلك، ما زال يعارض بحجة المسيرات والزحام، لكنني سأصر على موقفي.. سأمنحه فقط بعض الوقت مع حمزة.
أردتُ أن آخذها وأغادر فورًا، لم أطق تركها وهي متوترة قلقة لهذا الحد.
أخبرتها بحنان:
ـ سأكون بالخارج في انتظارك، سأوصلك لأهلك عندما تنتهين، لن أتركك تغادرين وحدك في الليل.
همت بقول شيء، لكن صوت زوجة عمي أتى عاليًا ساخرًا فجأة:
ـ هل ستتهامسان هكذا طويلاً أم ستشركاننا معكما!
أجفلت نورا، لكنني رمقت ثريا باحتقار:
ـ أهلاً يا حاجة!
انعقد الغضب في نظرتها وصوتها وهي تقول:
ـ كلمني باحترام يا ولد! أم نسيت أصلك؟!
ـ أصلي!
وأمسكت لساني بصعوبة كي لا أزيد الوضع سوءًا، لكنها انفجرت:
ـ نعم أصلك المنحط، كأبيك الذي سرق مال أخيه. سكتُ طويلاً، لكن يجب أن تعرف أن أباك الفاشل سرق أخاه وخسر كل ثروته بسبب مشاريع فاشلة مثله، ومع ذلك أكرمناكم وأسكناكم معنا، لتأتي بعد كل هذا وتسرق زوجة ابني! أتظن أنني لا أفهم ما تفعله؟ لا أفهم ما بينكما؟!
تسمرتْ غاضبًا مكذبًا ما تقول، وهتفت نورا بذعر:
ـ هذا غير صحيح!
ـ اخرسي أنت! لقد حذرت ياسين منك ولم يسمع كلامي! أتظنين أنك ستخرجين من هذا الزواج بسهولة؟! تخرجين بأموالنا وولدنا؟ حفيدي؟! أبدًا! لن يحدث أبدًا! إن أردتِ المغادرة اذهبي وحدك.. وحفيدي، ابن ابني، سيبقى معي!
حدقت بها نورا مصدومة شاحبة الوجة ولم تنطق.
تلك الأفعى.. العجوز المتصابية الغبية!
انفلتت أعصابي وقلت متوعدًا:
ـ نورا ستغادر مع ابنها.. وإلا سأخبر ابنك بغراميات أمه المصون!
ساد سكون مخيف للحظات ووجه ثريا يربدّ بغضب أسود، هتفت وكلماتها تختلط من شدة الانفعال:

ـ أيها.. أيها الكاذب الملعون! كيف تجرؤ!
ـ كاذب؟ هل أطلب لك فاتن لتخبرك بما حدث معها بسببك وبسبب النصاب الذي تنقلين له أخبار أسرتك، وهو كل ما يهمه اصطياد النساء المغفلات مثلك!
هدرت غير مصدّقة:
ـ كذب! كل ما تقوله كذب!
صرخت بانفعالها، فخرج ياسين من الغرفة بقلق ينظر إلينا، كانت نورا تراقب المشهد بصمت مذعور، خصوصًا عندما هتفت ثريا فور اقترابه:
ـ أرأيت؟ ألم أخبرك؟ كانت تخطط للهرب معه! لسرقة ابنك والهرب معه! ألم أخبرك؟
نظر لنا ياسين بذهول، وهتفت نورا:
ـ لا لا! هذا غير صحيح! هذا كذب! لا تصدّقها!
ـ لا يصدّق أمه يا خائنة يا ملعونة؟!
ـ لماذا لا تتكلمي يا نورا؟ أخبري ياسين ماذا فعلت أمه، وماذا حدث لفاتن؟ أخبريه بالأموال التي أهدرتها أمه المحترمة على شاب نصّاب خدعها وأوهمها أنه يحبها! وهي صدقت وسلمته أسرارنا!
هتف ياسين بحدّة:
ـ هل جننت يا زياد؟! كيف تجرؤ أن تتحدث مع أمي هكذا؟!
ما هذا الكلام الفارغ الذي تقوله؟! اخرج من هنا! اخرج!
انفجرت نورا:
ـ ما قاله صحيح يا ياسين، أمك تعرفت على شاب أوهمها أنه يحبها، كانت تكلمه وتخرج معه طوال الفترة الماضية، وحوّلت له مبلغا كبيرًا، لكن المشكلة ليست في هذا فحسب، المشكلة أنها حكت له أسرارنا، عرف أدق تفاصيل حياتي وحياة فاتن، لاحقني في الشارع، طاردني باتصالات هاتفية، يُسمعني.. أوقح كلام سمعته في حياتي، وعندما لم يصل لشيء معي، ذهب لفاتن.. كان معه كل مفاتيحها وتفاصيل حياتها، فانخدعت به و.. وتركها بعد أن وعدها بالزواج.. و.. وتخشى أن تكون حاملاً منه الآن!
ـ اخرسي!
هتفت ثريا وهي تطيح بمزهرية قربها، قبل أن تندفع نحو نورا ونظرة مجنونة في عينيها، تحركت بسرعة أحول بينهما، حاولت إزاحتي فدفعتها بذراعي دون تفكير لتتراجع بضع خطوات غير متزنة، تحرك ياسين الذي بدا أنه يجاهد ليستوعب ما يحدث، وواجهني بغضب متوتر هاتفا:
ـ إياك أن تمد يدك على أمي! لا أصدق ما تقولان، أنتما خائنان قذران! اخرج من هنا! قلت لك اخرج واتركنا!
لن أخرج إلا ونورا معي، لن أتركها بينهما أبدًا.. مع هذا الغبي وتلك المجنونة!
لكن ياسين تقدم تجاهي يدفعني بيديه لأتحرك، دفعته بانفعال كاد يوقعه أرضًا، رأيت مدى

اضطرابه، لم يكن من النوع الذي يغامر بدخول معركة جسدية، ملأ الخوف عينيه وهو مجبر على التقدم مني مجددًا لرد كرامته، رفع قبضته المتوترة وقبل أن يسدد ضربته بادرته بلكمة أسقطته أرضًا.. سآخذ نورا وأرحل وليفعلا ما يريدان!
كان هذا آخر ما فكرتْ به قبل أن يرتطم شيء ثقيل برأسي وتميد الأرض تحت قدمي!
ـ تضرب ابني يا خائن يا سافل!
ـ لا!
صرخت نورا وهي تهرع إليّ وأنا أهوي أرضًا، لا! يجب أن أتماسك.. يجب أن أقوم..
ـ زياد! زياد! إنه ينزف! هل جننت؟! كيف تفعلين هذا؟! اطلبوا دكتورًا، افعلوا أي شيء!
رأيت وجه نورا الباكي ينحني فوقي.. تمسك وجهي بيدين مرتعشين.. تمسد جبيني.. يجب أن أقاوم لأجلها.. لكنّ ألمًا حارقا زحف لوعيي ببطء.
ـ تبكين عشيقك يا فاجرة!
ـ توقفي! أفيقي وافهمي الحقيقة! وليد هذا نصاب! جعل فاتن عشيقته وهرب! أتفهمين؟ كل ما جرى لها بسببك!
ـ أمي، لا!
صرخ ياسين وثريا تجذب نورا بقوة بعيدًا عني لتطبق على عنقها وهي تطرحها أرضًا جواري..
ـ اتركيها يا أمي، ستقتلينها!
ـ كاذبة! كاذبة!
ـ ستموت يا أمي أرجوك! أستحلفك باللـه اتركيها!
نورا!
المجرمة ستقتلها.. المجرمة!
تحركت.. خيّل لي أنني تحركت.. لكنّ سوادًا عميقًا ابتلعني.

* * *

لا أدري ماذا حدث، أفقت فوجدت الجميع قد اختفوا، نهضت بصعوبة أترنح من الألم، أتلفت حولي، الجبناء! خافوا مواجهتي!
ونورا! ماذا فعلوا بها؟! بحثت عنها في كل غرفة وكل ركن قبل أن أتصل برقمها، رن طويلا حتى أجابته، فهتفتُ:
ـ نورا! أين أنت؟ هل أنت بخير؟ المجرمة كانت تخنقك! ماذا حدث؟ أنت بخير؟!
أتاني آخر صوت كريه أتوقعه:
ـ مجرمة؟! أنت هو المجرم الخائن! وعشيقتك الملعونة نالت ما تستحق!
ارتعشتُ من الفزع والانفعال:
ـ كيف أخذت هاتفها! أين نورا؟! الويل لك! لو مسستها بسوء سأقتلك!
ضحكت هازئة وقالت:
ـ لن تجدها أبدًا! قتلتها! دفنتها بيديّ ولن تجدها أبدًا!

وأغلقت الخط! المجرمة أغلقت الخط!
لا، لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا، لا يمكن أن تكون قتلت نورا!
غادرتُ البيت كالمجنون أتجه لسيارتي، لكن ظل الصوت البغيض يتردد.. «دفنتها بيدي»!
نظرت للحديقة أفتش فيها بعينيّ، عن أي جزء من التربة مقلب حديثا، تصورت أنني وجدته، وكان عليّ التأكد، عليّ ألا أتركها مدفونة تحت الأرض!
بدا الظلام حالكا.. والمسافة بعيدة، كل خطوة كانت تعيدني للوراء أكثر وتطيل الطريق، لم تكن هناك علامات ترشدني.. فقط ظلام مخيف، تركتني علاماتي البيضاء.
انهرت على ركبتي أمام جزء من التربة مقلب حديثا رغم أصص الزرع المتراصة فوقه، أطحتها بذراع متصلبة وأخذت أحفر بكلتا يدي..
كانت قطع من عقلي تنهار في كل ثانية تمر، أنا السبب.. لو لم أدخل حياتها، لو لم أحبها، لما حدث كل هذا!
حفرت حتى تمزق صدري.. ونبض ألم حارق في رأسي مكان إصابتي.
أين هي؟ أيمكن أن تكون ثريا تخدعني؟!
نورا!
صرخت بكل صوتي.. بكل فزعي..
لكنني لم أجد شيئا، لم أتوقف إلا عندما كاد ينهار قلبي من الألم، نظرت حولي بيأس ثم هرعت لسيارتي بملابسي الملطخة بالطين، سأذهب لبيت أهلها.. سأجدها هناك.. لا يمكن ألا أجدها!
قطعتُ الطريق بسيارتي بسرعة، حتى اضطررت إلى خفض السرعة أمام الازدحام وتدافع الناس حولي، أجبرتُ نفسي على التركيز لأجد مهربًا من المسيرة المُطارَدة من عناصر الأمن، وعندما القِيَت على سيارتي قنبلة غاز، خرجت مختنقًا بعدما أوقفتها فجأة مصطدمًا بالرصيف، أخذت أجري مع من يجرون، لا أرى أمامي وألم حارق في صدري ووجهي وعينيّ.
«زياد! كيف وجدتني؟»
وجدتُ علاء أمامي فجأة بعد دقائق، وأنا أحاول الاختباء في إحدى العمارات.
وقفت مصدومًا أمامه.. لم أكن أبحث عنه بالأساس، لكن لم أستطع إخبار وجهه الملطخ بالدماء بذلك، كانت عيناه تشرقان عزيمة وهو يهتف:
ـ تعال من هنا.. هيا.. لقد خططنا لكل شيء، سنتفرق مؤقتًا ثم نتجمع في شارع جانبي من جديد لنفاجئهم.
تحركت معه مجبرًا، نواصل الجري.. نتخبط في أشخاص آخرين يجرون بدورهم، نهرب من الدخان الكثيف وأصوات الطلقات المدوية، قلت أتلفت حولي:
ـ الوضع خطير يا علاء، عد لبيتك الآن ويكفي هذا اليوم، لقد بدأوا بإطلاق الأعيرة النارية، رأيت بعينيّ جثث شباب على الطريق.
هتف بغضب:

ـ كل مرة نتراجع عند هذا الحد! لكننا لن نتراجع اليوم! وهذا ما لن يتوقعوه.
دفعني في مدخل مزدحم بالأشخاص، وقال وهو يهم بالابتعاد:
ـ ابق هنا، يجب أن أحضر البقية.
تلفت حولي مجددًا ثم نظرتُ إليه وهو يبتعد، أصيح:
ـ انتظر حتى تهدأ الأوضاع، إنهم...
لم أتم جملتي.. تلقى رصاصة في رأسه مباشرة أمام عينيّ، في ثانية واحدة فارقته كل الحياة.. وسقط أمامي برأس منفجر.
ساد الهرج والمرج في المجموعة، يتحرك البعض للذهاب إليه، ويبحث البعض الآخر عن مخبأ أكثر أمنًا بعدما بدأت الأعيرة النارية في الوصول إلينا.. وأنا لم أتحرك.. وقفت أنظر إليه ولم أتحرك..
علاء!
نظرت إلى السماء.. كأنني مربوط بخيط خفي يجعلني القي سؤالي لأعلى، لما وراء السحاب، سؤال صامت.. شارد لا يهتدي لجواب.
نورا.. علاء! لماذ؟!
أين هي نورا! أما زالت مدفونة في الحديقة وأنا الذي لم أجدها؟
أم حيّة وبخير في مكان ما؟ أين هي؟!
لماذا لا أجد جوابًا.. لماذا لم يجده علاء؟ ولم يجده كل هولاء بوجوههم الدامية؟
اخترق ألم ناري كتفي اليمنى فجأة وترنحت مكاني فاقدًا التوازن..
ومع تدافع الجميع، سقطت بين الأقدام أدرك شيئًا واحدًا فقط..
أنني هالك لا محالة.

* * *

«مستحيل! لا أصدّق! زياد الشهاوي! لا إله إلا الل-ه!»
فتح باب غرفتي فجأة ذات يوم لأجد محسن رجب أمامي، لم أدر أينا الأكثر صدمة.. حدّق كل منا في الآخر، لم يتغير؛ شعره ولحيته كما هما وإن تسلل إليهما شيب خفيف، وامتلاء بسيط في جسده لم يكن موجودًا من قبل، لم أصدّق أنني أراه أمامي.. حتى بعد مرور دقائق من الصدمة والانفعال والدموع، لم أصدّق أنني أجلس معه كما كنا.
ـ قسمًا بالل-ه لا أصدّق عيني! عندما وصل لي ذلك الشاب.. الممرض، وأخبرني أنه يبحث عني منذ أيام طويلة، ذهب للقناة القديمة التي كنت أعمل بها وعلم أنني تركتها، عدت للصحافة منذ الزلزال يا زياد.. لم يعد بمقدور أحد تكميم الأفواه، أعطوه عنوان عملي الجديد، الحمد لل-ه أنه وصل إليّ.. أخبرني بكل شيء حدث لك.. لم أصدّق.. قلت لا شك أن هناك خطأ ما وأنك لست زياد الشهاوي الذي اختفى منذ الزلزال.. سبحانك يا رب! لا شيء مستحيل!
إذن عماد لم يتخل عني رغم خلافنا، ربما خشى أن يصاب بكدمة زرقاء أو يقع فوق السلالم!
كنت الآن أستطيع الانتقال من المقعد للسرير بمساعدة عكازين، تقدم تمنيته شهورًا، أخبروني

أن أمامي شهورًا أخرى من التدريب والعلاج الطبيعي حتى أستطيع المشي بشكل طبيعي.. وأعود كما كنت، لكن لا أصدّق أنني سأعود كما كنت أبدًا.
رأيت في عيني محسن اختلاف هيئتي الذي لم يعلق عليه تأدبًا، وتبادلنا الأخبار والقصص، وكانت حكاياته بلا شك الأكثر والأغرب عن كل ما تغير منذ الزلزال، أردت أن أحكي له عن وجع مدفون في قلبي لكنني اكتشفت أنني لم أخبره يومًا عن نورا، كنت كلما أردت التحدث عنها معه يقيدني خوفي من أن أسيء إليها، أن يظن أنني لا أخبره بكل الحقيقة وأنها ليست نقيّة كما أدّعي.. فلم أحك.. لم أخبر أحدًا.
ولم أجرؤ كذلك على البحث عن اسمها في سجل الوفيات، وجدت سلمى وأمها، أما نورا فلم أبحث عن اسمها، لا أريد أن أجده؛ افضل أن أعتقد أن ذاكرتي مشوشة، وأن هناك خللاً في ذاكرتي، على أن أتأكد من فقدانها للأبد.
ـ تبدو بخير، الموضوع مسألة وقت كما عرفت، فلماذا لا تخرج من هنا؟
سأل محسن وهو يرمقني بنظرة مشجّعة، فأجبته بصدق:
ـ لا أعرف أين أذهب، لا أحد أعرفه بقي على قيد الحياة، كل من بحثت عنهم وجدت أسماءهم في سجل الوفيات، ما عدا واحدة أريدك أن تساعدني في العثور عليها، زينة ابنتي، توفت والدتها وجدّتها في الإسكندرية، لكني متأكد أنها على قيد الحياة، ويجب أن أجدها!
بدا عليه التأثر وتمتم:
ـ لا حول ولا قوة إلا بالل-ه، سأبحث يا زياد، أعدك.. لكن سامحني، يجب أن تضع في اعتبارك أن.. وفيات بعض الأطفال غير مسجلة، لأن الأعداد كانت مهولة ومررنا بفترة ارتباك طويلة حتى وُضعت تلك السجلات. الإسكندرية لم تعد الآن كما كانت، لم يتبق إلا نصفها تقريبًا، كثير من المحافظات تغيّرت حدودها وتقسيماتها، ليس عندنا فقط بل في كل دول العالم التي ضربها الزلزال، ومع هذا لن أدّخر جهدًا في البحث عنها، آسف لقول هذا لكن عليك أيضًا أن تهيئ نفسك.. لجميع الاحتمالات، لا أريدك أن تدخل في صدمة أخرى لا قدّر الل-ه.
أثار أعصابي، وكبحث انفعالي بصعوبة، أشحت بوجهي أنظر إلى النافذة دون رد، ثم قلت:
ـ إذن العالم تغيّر فعلاً؟ حتى أسلوبك في الحديث تغيّر.
أطلق ضحكة مجلجلة قبل أن يقول:
ـ لا تظن أنك الوحيد الذي لا يفهم ما يحدث لأنه كان في غيبوبة، كلنا دخلنا هذه الغيبوبة منذ الزلزال، لكن بشكل مختلف، أكان يجب أن يتدمر العالم لتنصلح حالنا؟ أتذكر الليلة التي سبقت الزلزال؟ ليلة الحشود يا زياد! كان لا بد أن تتزلزل الأرض وتلفظ كل الدماء التي شربتها، انهارت دول كبرى وتغيّرت خريطة وموازين القوى في العالم، كل فريق كالعادة يفسر الأمر بشكل مختلف. في البداية هلل الناس؛ «الل-ه أكبر، هذا هو العدل المنتظر»، بعد المرور بهستيريا أنه يوم القيامة وانتظار ظهور يأجوج ومأجوج، لك أن تتخيل أن الاتصالات الهاتفية في برامج التوك شو كلها كانت تتحدث عن أشخاص رأوهم، أو تحدّثوا مع المسيخ الدجال! وعندما استقرت الأوضاع نسبيًا وبدا للناس أن هذا نهج حياتنا الجديد؛ اختفوا في

جحورهم، أدركنا أن السيف مسلط على الجميع، لكن البعض تصيبهم العقوبات والكدمات الزرقاء أكثر من البعض الآخر، هناك شيء غامض.. حكمة ما غير مفهومة، وقعت لي أمور سيئة وأصبت بتلك الكدمات، لكن لم أتأكد تمامًا.. ربما أخشى تصديق أننا نتعرض فعلاً لعقوبات فورية على أفعالنا، تذكرت حديثنا قديمًا وقلت ربما كانت أبواب السماء مفتوحة أمامك! لكنني أريد أن اصدّق أننا أكثر حرية من ذلك.. أحرار في اختيار ما سنفعله بحياتنا دون رقابة مشدّدة.. مفزعة، كأننا صغار متراصون في فصل والمدرس يقف فوق رؤوسنا بالعصا، لِمَ الآخرة إذن إن تمّ حسابنا في الدنيا على الصغيرة قبل الكبيرة؟ أين خلافة الإنسان في الأرض؟ أين حرية الاختيار؟ لا أظن أن الأمر يسير هكذا، كثيرون يقولون إنه إيحاء نفسي.. لا أحد يعرف الحقيقة كاملة، ربما هي ضربة قوية على رؤوسنا جميعًا لنفيق، على الأقل أصبح هناك تيار سياسي واحد.. تيار الإصلاح، لا يهدف إلا لتطوير المجتمع فقط، دون أي أطماع شخصية أو سياسية.

تذكرت علاء.. تذكرت دماءه ورأسه المفتت، أيدري بما حدث على الأرض بعد رحيله؟ أتمنى لو أنه وجد بعض العزاء حيث هو الآن.

تنهد محسن وتابع:

ـ المهم.. بالنسبة لأين ستذهب بعدما تخرج؛ فالأمر سهل جدًا، بالأوراق التي ستأخذها من المستشفى عند خروجك سنقدّم طلبًا بالحصول على شقة لك كتعويض عن منزلك الذي انهار في الزلزال، وستحصل عليها فورًا، هذه ميزة لا أستطيع إنكارها.

وابتسم بمرح لكنني لم أستطع الشعور بنفس المرح، ربما لأنني كنت أنتظر منه أن يؤكد لي أن شيئًا لم يتغير وأن هناك خدعة ما.

ـ سأخرج إذن في أقرب وقت، بعد يومين أو ثلاثة.. أخبرني أي يوم هو الأنسب لك لأنني سأحتاجك في هذه الإجراءات.

ـ طبعًا، لست بحاجة لأن تخبرني، في أي وقت تريده سأكون معك.

تركني محسن بعد مزيد من حكاياته التي لا تنتهي، على الأقل هذا لم يتغير فيه.

بقيت طويلاً في الشرفة المطلة على حديقة المستشفى بديعة الجمال، أصبحت وحدي فعلاً.. دون أهلي.. دون ابنتي.. أو حبيبتي.. لا عمل.. ولا أنا نفسي.. كنتُ غريبًا عن هذا الجسد الذي يحتلني ويصيبني بالعجز.. لا أملك أي شيء.

لم أدرك قبل الآن أنني كنت أملك كل هذا، أنني لم أكن وحدي كما ظننت على الدوام، لم أعرف الفرق إلا عندما ذقت مرار الوحدة الحقيقي.

بعدما خرجت فعلاً من السباق الذي نخوضه رغمًا عنا؛ نجري ونحلم ونلهث وراء أهدافنا، ولا ننال إلا المقدّر لنا مسبقًا، نلعب أدوارًا، نحتل الصدارة تارة، وأخرى نلقى على هامش الحياة، لكن نستمر.. الأمل في الفوز يجعلنا نستمر، رغم كل إحباطات الواقع.

وها قد تغيّر الواقع؛ فهل وجدوا الجنّة التي ينشدونها؟ أم لا سبيل لإيجادها على الأرض؟

كل شيء تغيّر؛ الناس، معاملاتهم، كلامهم.. شكل المباني والشوارع التي أراها من نافذة

غرفتي، كل هذا تغيّر، وحدها السماء كما هي.. أذكر آخر مرة رفعت رأسي إليها، بعد موت علاء.. واختفاء نورا، ابتلعت أسئلتي بصمت كالعادة، صمت تردد صداه في صدري.
ومع ذلك تبدو الشيء الوحيد الصادق.. الباقي من عالمي، الشيء الوحيد الذي يقهر هذا الصدى.
رفعت كمّ منامتي، أرمق الكدمات التي يراها أطبائي بصمت مذعور، ولا يعلقون. هل سأموت قريبًا مثلما يظنون؟
هل نجوت من كل هذا لأموت دون معنى في النهاية؟ أم قد يكون كل هذا العبث حولي تدبيرًا إلهيًا دقيقًا لا أدرك حكمته؟
التوى فمي في بسمة هازئة.. حائرة، شردت طويلاً حتى تعالت طرقات على باب غرفتي ثم ظهرت زائرتي، وكانت آخر من توقعت رؤيتها الآن.

١١

«ـ الذكريات تنهمر كالمطر.
ـ هي دائما كالمطر، ومهمتك أن تصنع منها جدولاً صافيًا.»
استوقفني هذا المعنى ذات مساء في رواية قلب الليل لنجيب محفوظ، شرد ذهني، كل شيء له علاقة بالمطر يجعلني أنتبه وأتوقف، أتأمل المعنى من جديد، كأنني أنتمي له بشكل ما، أو أنتظر منه شيئا ما.
ربما لأن كل شيء في حياتنا ينهمر كالمطر، وليس الذكريات فحسب، كل السعادة.. كل الحزن.. النجاحات، الإخفاقات، العلاقات، تنهمر علينا من كل صوب، هناك من ينجح في أن يجعلها جدولاً صافيًا، وهناك من يغرق بعجز في مستنقعات القبح، فأين تراه جدولي أنا؟ وأين زماني؟
مُعلقة بين الحاضر والماضي، عجنني الموت، فأنبتُ زهرًا سماويًا، وريقاته الأمل.. وجذوره الحزن. لا أريد التخلي عن حلقة وصل منسوجة من الوهم، لا أمتزج في حاضرهم، ولا أعيش ماضيّ، كلما حاولت أن أكون مثلهم.. منهم، يخبّئ لي الحاضر مفاجأة تطيح بتوازني، أين أنت يا زياد، رحلتَ وأصبح فؤادي فارغا، فمن يردك إليّ؟
تغيرت الدنيا كما أردت، فلماذا لست معي وتركتني وحدي أواجه ما تمنيته أنت يومًا؟
مات الشيخ خالد، ووقفت أمام منزلي طوابير من الناس يسألونني الدعاء لهم ولأولادهم ولأهلهم ولكل شيء، بث محاصرة، مراقبة، ينعتونني بصفات وكرامات أخشى أن يعاقبني الل-ه عليها.
كل يوم كانت رغبتي في الرحيل عن المدينة تزداد، أهرب منهم بصعوبة لأوصل صغيريّ للمدرسة وأذهب للعمل، كنت أدخل المستشفى كل يوم كأنني أصل أخيرًا لبر الأمان وأدلف سريعًا لمكتب الحسابات، بعيدًا عن كل من يعرفني ويعرف قصة الشيخ خالد، سامحه الل-ه.
نورا!
ظننت في البداية أن من تناديني موظفة الاستقبال قبل أن أختفي في مكتبي، لكنني التفت لأجدها فاتن!
تسمرت كل منا في مواجهة الأخرى، تحركت هي أولاً لتعانقني والدموع في عينيها:
ـ سبحان الل-ه.. لا إله إلا الل-ه!
اختلجت مشاعري وذكرياتي وجوارحي، نسيت كيف الشعور بلقاء صديق قديم، بشخص مألوف من عالم عشته لم يعد موجودًا الآن.
ـ لا يمكنك تخيّل سعادتي لرؤيتك يا فاتن!

غمغمتْ متأثرة، فابتعدتْ تنظر لوجهي مبتسمة بحماسها القديم تخبرني:
ـ أقسم باللـه كنت سأجن عندما لمحتك الأسبوع الماضي، وأخذت أكلم نفسي، جئت هنا أكثر من مرة حتى عرفت أنك تعملين هنا وانتظرتك، الحمد للـه أنك بخير، الحمد للـه، وكيف حال حمزة؟ يا رب يكون بخير!
ـ بخير الحمد للـه، بخير.
ـ ربنا كريم، أتعرفين أي أخبار عن ياسين وماجد؟
بدأت أتوتر وأنا أقترب من سؤالي الهام:
ـ نعم، تواصلت مع ياسين منذ سنوات، وعرفت أنه بخير هو وأخوه، وأنتِ ماذا عنك؟ أتعرفين أخبارًا عن أي أحد؟ أتزورين شخصًا هنا؟
أطرقت متنهدة ثم قالت:
ـ نعم، مسكينة ربنا يشفيها!
ـ أمك؟
رفعت عينيها لي بمرارة:
ـ لا، أمي اللـه يرحمها في الزلزال، كنتُ في السوق، وهي وحدها في المنزل عندما.. تهدم، لا حول ولا قوة إلا باللـه، ألف رحمة عليها، أنا أزور الحاجة ثريا، بعد كل ما حدث لم يبق لي غيرها!
انقبض قلبي وصمتُّ مصدومة، أحست بي فاتن فقالت بسرعة:
ـ حالتها تصعب على الكافر، لو زرتها سترين بنفسك.
ـ لا! لن أزورها!
ـ على الأقل أمانة عليك أخبري ياسين وماجد.
تمتمتْ بنفور:
ـ حسنًا.
وضربتني ذكرى آخر ليلة بقسوة، هي السبب في كل شيء! وفاتن المسكينة ما زالت لا تعرف الحقيقة وتزورها وتهتم بها، يجب أن تعرف الحقيقة بعد هذه السنوات.
ـ لكن ما شاء اللـه عليكِ يا نورا، كأنك لم تكبري عامًا واحدًا، أقلت إن ياسين هنا في مصر؟
ـ لا، ليس في مصر، أعيش وحدي مع.. ابني.
قلت بتصلب، فرددت حائرة:
ـ وحدك؟
عرفت فيم تفكر، وبقي اسم زياد معلقًا بيننا دون أن تجرؤ إحدانا على البوح به.
ـ ألا تعرفين أي شيء عن أي أحد آخر؟
سألتها في محاولة أخيرة، فردت:
ـ أقسم باللـه العظيم لا أعرف أي شيء، الحاجة ثريا الوحيدة التي عرفت طريقها منذ عامين. أنا أعمل في مدرسة الآن، مُدرّسة أطفال، وجئت هنا زيارة مع زميلة كانت تسأل عن

معرفة قديمة فقدتها من أيام الزلزال، فسألت عن كل من أعرفهم حتى وجدت اسم ثريا، وواظبت على زيارتها منذها.
اقتربت مني موظفة في مكتب الحسابات تسألني عن سبب تأخري، فتبادلنا أرقام الهواتف أنا وفاتن بسرعة، مع وعد بلقاء مطول آخر.
عدت إلى مكتبي أشعر بالرغبة في البكاء، لماذا وجدت هي ثريا وأنا لم أجد زياد! لماذا هو الوحيد الذي لم أجد اسمه في أي سجل! لماذا؟!
أيمكن أنه.. مات منذ تلك الليلة؟ بقى فاقدًا الوعي حتى أتى الزلزال وانهار المنزل فوقه؟ أنا مجرمة! أنا السبب.. أنا من تركته، تركته رغمًا عني.
كانت تخنقني، ازداد ثقل صدري.. ودارت الوجوه أمام بصري المشتت..
رأيت أبي.. حمي معتز.. أمي وأخويّ.. أهو صوت بكاء صغيري في الغرفة؟
سأموت.. ثريا ستقتلني.. لن أرى حمزة وهو يتكلم.. يكبر.. لن أوصله للمدرسة.. وأراه شابًا جميلاً.
أهو عقابي على حبي لزياد؟ ذنبي المكتوم في قلبي؟ سأموت وسينساني، سينساني الجميع.
أيمكن للكون أن يتوقف يومًا واحدًا لموتي، أن يذكروني ذات غروب.. يبكوا رحيلي.. يودّعوا أثري الشاحب في الحياة.. ثم يتابعوا حياتهم؟
وأنا هنا وحدي سأموت.. موصومة بالخيانة.. بالعار.. بالظلم.
لكنني لم أمت، كريم وعمر وصلا في الوقت المناسب، دخلا من الباب الذي نسينا أنه مفتوح، فأنقذا حياتي من بين يديّ ثريا، بعدما كادت تزهق روحي، وياسين مصدوم يتوسّل إليها أن تتوقف!
كان كريم وعمر ينتظرانني مع أمي وقلقا لتأخري فأتيا إليّ، ثوانٍ معدودة كانت تفصلني عن الموت، استوعبت خلاصي بصعوبة.. بذهول، لا أذكر سوى أنني أجلس أرضًا وأخواي حولي يصرخان:
ـ ماذا حدث؟ ماذا فعلوا بك؟ ماذا يحدث هنا؟ ومن هذا؟!
ـ سنطلب الشرطة! سنحرر لكم محضرًا في القسم!
كانت ثريا تقف عاقدة ذراعيها أمام صدرها بأنفاس متسارعة ووجه يشتعل غيظًا، وياسين شاحب متوتر، يقول:
ـ لم نفعل لها شيئًا، اسألها هي ما الذي بينها وبينه، ولماذا تصرّ على الطلاق! أختكما...
صرخ به كريم وهو يهبّ واقفًا أمامه:
ـ أختنا ستغادر معنا حالاً هي وابنها!
صرخت ثريا:
ـ لا! لن تأخذوا حفيدي!
هتف عمرو:
ـ اطلب الشرطة يا كريم، بسرعة!

بعد جدال قصير رحلت أنا وحمزة معهما، وما إن صفى ذهني قليلاً، حتى حاولت إخبارهما أنني أريد الاطمئنان على زياد المطروح أرضًا قبل أن أغادر، لكن اتهامات حماتي المجنونة وترتهما وجعلتهما يصران على الرحيل في الحال، قطعنا الطريق بسرعة جنونية، نخشى غلق الطرق وتصاعد المواجهات بين المتظاهرين وقوات الأمن.
كانا في إجازة قصيرة من المزرعة ولا بد من أن يعودا في اليوم التالي مباشرة، حاولا إقناعي بالذهاب معهما لكن رفضت بجهد، كان يجب أن أكلم زياد، وقبل ذلك يطلقني ياسين، لم أصل إلى زياد طوال الليل، ليس فقط لأنني نسيت هاتفي في زخم الأحداث، لكن لأن هاتفه ظل غير متاح.
كلمت ياسين، كان يجب ألا أنتظر حتى تهدأ الأوضاع واصرّ على الطلاق بكل وضوح، بعد كل ما حدث تلك الليلة.
ـ هل ما قالته أمي صحيح؟ أبينك وبين زياد علاقة؟!
سألني بصوته المهتز، فرددتُ بانفعال:
ـ ما زلت تصدّقها بعدما رأيت ما فعلته؟ ألم تفكر أن تسألها هي عن علاقاتها الخفية والنصّاب الذي تعرفه؟
كدت أتمزق وأسأله عن زياد، كيف هو؟ لماذا لا يجيب الهاتف، لكن لم يكن هذا ممكنًا أبدًا، خصوصًا بعد أن قال:
ـ لا أعرف، لم أتمكن من التحدث معها، تركنا البيت بسرعة بعد رحيلك، ذهبت هي لخالتي لتريح أعصابها، وأنا حجزت في فندق قريب من المطار، الأوضاع متأزمة للغاية في البلد الآن، ويجب أن أسافر بسرعة قبل أن تتعقد أكثر وتتوقف رحلات الطيران.
دار ألف سؤال في ذهني، ثم قلت بحسم:
ـ ستطلقني قبل أن تسافر، غدًا في الصباح سنذهب لأقرب مأذون.
ـ لكن...
ـ لم يعد هناك لكن يا ياسين، بعد ما حدث الليلة انتهى كل شيء دون رجعة.
لم يجادلني، لم يكن في استطاعته أن ينكر ما أقول، وكان أول شيء فعلته في الصباح التالي أن التقيته مع عمر وكريم عند المأذون.
كانت الشوارع في فوضى واضحة، وآثار معارك ليلة أمس تترك أثرها عليها، كان من الصعب الوصول لشوارع كثيرة بسبب الاعتصامات في الميادين الرئيسية، لكن أصرّيت على أن أنهي كل شيء بأي ثمن، لا أعلم لو لم أصرّ على الطلاق يومها كم سنة كنت سأظل مُعلقة دون أن أعثر عليه، سألني ياسين بخجل وضيق قبل أن نفترق إن كنت أعرف أي معلومات عن ذلك الرجل الذي قلت إن أمه على علاقة به، لأنه اتصل بخالته فأكدت له أن أمه لم تزرها بالأمس ولم تقض الليلة عندها، وهو قلق عليها خصوصًا أنها أخذت معها كل ذهبها ومبلغا من المال دون سبب معلوم، لكنه لم يفكر كثيرًا وقتها، وكان واضحًا لكلينا إلى مَن ذهبت أمه، راعيت صدمته وأخبرته أنني لا أعرف شيئا دون عتاب أو تشفٍ، وافترقنا.

تركني أخواي عند بيت جدتنا حيث تمكث أمي، واستقلا سيارتهما القديمة للعودة للمزرعة بعد الاتفاق على جمع شملنا خلال أيام في بيت المزرعة، الذي تنقصه أسرّة وعدة تجهيزات لننتقل إليه، ونبتعد عن التوتر الأمني هنا. انتظرت حتى ابتعدا بسيارتهما ولم أدخل المنزل، احتضنت ابني بقوة واتجهت بتوتر كبير إلى منزل حماتي، زياد لم يرد منذ أمس.. لا أعرف عنه شيئا، ولا عن مقدار إصابته، كان عليّ أن أصرّ أكثر لأخويّ على أن نبقى حتى نطمئن عليه.

سرت طويلاً ووجدت بعد عناء سيارة أجرة، ركبتها وبعد دقائق توقفنا بسبب السيارات المهشمة التي تسد الطريق، جفت دمائي أنظر للسيارات الخاوية كجثث متراصة في وضح النهار.

أخذت أبحث عن أي شخص أسأله عما حدث، ولم يفدني أحد بإجابة شافية، انطلقت لأقرب مستشفى لعلي أجده ضمن المصابين، لكن المستشفى كان في حالة توتر وازدحام واضحين من إصابات ليلة أمس، بحثت بنفسي في الغرف، في الممرات، وأمام هلعي البالغ وعدتني إحدى الممرضات بالنظر في السجلات، فجلست أنتظرها في الاستقبال، وحينها تغير كل شيء..

تراقص المبنى كأنه من هلام، علا الصراخ وساد الفزع والدماء في المكان.. في البلد بأكملها..

انهار كل مكان أعرفه.. منزل جدتي.. ومنزل حماتي، بيتنا القديم، لم ينقذ أخويّ سوى ذهابهما لمزرعتهما ذاك الصباح. وحدها بقيت المزرعة بالبيت الحديث البناء المكون من طابق واحد، كانت أمي نقلت إليه كثيرًا من الأمتعة والملابس والأجهزة، لكن لم يكتب لها أن تعيش فيه.

بقيت الميادين محتشدة، تدافع الملايين إليها كرهًا وطوعًا، مختلف الانتماءات والتيارات السياسية، امتزجوا جميعهم بغريزة البقاء، فباتت ملجأ دائمًا لمن لم يطأها يومًا.

وبقي لحسن حظي المستشفى الذي كنت فيه، بقي من بين المباني القليلة التي لم تتهدم يومها بعد دقائق من الفزع والرعب، وتصدّع جزئي للمبنى.

مرت الأيام الأولى بعد الزلزال المدمر في فزع وضياع، لم تكن مصر البلد الوحيد الذي ضربه الزلزال الكبير، امتد لعدد من الدول العربية والأوروبية، لكن نصيب دول العالم الثالث كالمعتاد كان الأكبر في الخسائر المادية والإنسانية، كل من بقي له فرد واحد من أهله عدّ نفسه من المحظوظين.

دُكت الأرض دكا، أسر بكاملها اختفت تحت الأنقاض، قرى ونجوع تساوت بالأرض، لا طرق ولا بيوت في مكانها، ردّد الكثيرن أنه يوم القيامة، لكنه لم يكن يومًا.. كان أيامًا متواصلة من العذاب والصدمة، وصلت لأخويّ بعد كثير من المشقة والمخاوف والكوابيس التي بدت على أرض الواقع أبشع من أي حلم، وجدت عُمر فقط في البداية، أخبرني أنه وكريم يسافران ليبحثا عني أنا وأمنا بالتناوب منذ أسابيع.

كنت أحتضن حمزة لا أصدق نجاتنا، لا أصدق أنني لن أفقده في أي لحظة أو أفقد حياتي، نشط الزلزال ذاكرة الخوف والفزع بتوابع متتالية، لم يعد هناك ما يسمى بالأمان، الكل

مُعرض للفناء في أي وقت.
لم يكن سهلاً أبدًا بعد كل هذا أن أتخذ قرار البحث عن زياد، أن أترك أخويّ وحضنهما الآمن وأرحل مع ابني؛ لأحصل على مسكن صغير من مساكن التعويضات بعدما استقرت الأوضاع قليلاً، وأبدأ البحث، بدأت ولم أنته حتى الآن.
استطاع ياسين بعد عام التواصل معي من جديد، عرفت أنه وأخاه بخير، وعرفت لاحقًا أنه استمر في الزواج والطلاق عدة مرات، لكن لم يعثر أي منهما على ثريا.
تساءلت كثيرًا عن مكانها بعد كل هذا؟ هل ماتت ضمن من ماتوا أم تعيش في مكان ما؟ أتراها نالت عقابها على ما فعلته بي؟ بزياد وفاتن؟ كنت على يقين أنها نالته، حتى لو لم يتغيّر الكون.. كان لا بد من أن تناله.
عرفت أن منزل فاتن انهار مع كثير من المنازل في شارعها، فلم أعرف وقتها إن كانت قد نجت بمعجزة مثل البعض، أم ماتت دون أن تعرف أن ثريا هي الجاني الحقيقي في قصتها الحزينة.
ها هي بعد ما حدث تعتني بها! كيف لم تمت هذه المرأة حتى الآن؟
أستغفر الله العظيم.. لا تنقصني ذنوبها!
لا أفهم حتى الآن كيف سقطت ثريا تلك السقطة المفجعة، وفي آخر العمر، أهكذا حال الكثيرين؟ فقط ينتظرون الفرصة ليسقط قناعهم ذات شهوة؟ كأن وسائل التواصل الحديثة، فيسبوك وغيره، مزقت الغلاف الأخير عن مدّعي الأخلاق والقيم، ذلك الأمان خلف الشاشات وهم يمارسون انحرافاتهم، نزع ورقة التوت الأخيرة؛ وأخذتهم العزة بالأثم، فتطور كل هذا لجرأة فجة في الحياة العامة.
كان من المستحيل أن أنسى، حاولت كثيرًا نسيان تلك الليلة ولم أقدر، لم يخفف ألمي سوى نجاحي في العثور على ابنته..
«أريدك أن تربي ابنتي.. أريدها أن تكون مثلك، أتعرفين أنني للمرة الأولى أدرك أن الرجل عندما يحب امرأة يرغب في أن تربي أولاده.. هي فقط لا أحد غيرها».
سيطر صوته على أفكاري.. فسافرت للإسكندرية، كانت أصعب وأغرب رحلة مررت بها، الفوضى في كل مكان رغم مرور شهور على الزلزال، الطرق متكدسة، الكل لا يعرف أين يذهب وأين يتجه، ورغم كل هذا كان الناس هم الأعجب، لم يحتد أحدهم على الآخر رغم الزحام، لم ينفعل سائق الحافلة التي ركبت بها على سائق آخر كاد يصطدم به، تقبل اعتذاره برحابة صدر، سادت روح من التسامح والتعاون بسبب المأساة المشتركة، نزع الكره والغضب من الصدور ولم يبق سوى التفاهم والتعاطف الإنساني، أمنذ تلك اللحظة تغيّر العالم؟
تذكرتُ اسم المطعم والمكان الذي أخبرني به، وجدته مجرد أنقاض، فسألت واستقصيت، بحثت في المستشفيات التي كانت في حالة هرج ومرج، ولم أجدها.. عدت أسأل كل بيت باقٍ في المنطقة حتى عرفت أن هناك بيتًا كبيرًا يضم الأطفال الذين فقدوا أهاليهم، لم أعرف إن

كنت سأجدها أم لا، لعل أمها أخذتها، أو زياد، لكنني عثرت عليها.. زينة الجميلة بعينيها الخضرواين التي رأيتها مع أبيها مرة واحدة فقط، لم تتعرفني البنت.. كانت في حالة صدمة صامتة، أخبروني أنها كانت تلعب أمام المطعم عندما انهار وجدتها وأمها بداخله، نالتها بعض الإصابات لكنها تعافت منها، لم أجد صعوبة في أخذها معي، التكدس فوق الاحتمال ولا يوجد من يعتني بكل هؤلاء الصغار، مجرد توقيع على ورق غير رسمي وأخذتها، كنت حريصة أن أترك اسمي ليعرف من يبحث عنها أنها معي.
تعطلت الدراسة لعام كامل حتى شُيدت المدارس من جديد، وبدأت التبرعات والمساهمات لإيواء ملايين المشردين، وبدأت في نفس الوقت الحوادث القدرية المتلاحقة تصبح يقينًا واضحًا بعد أن كانت متفرقة، يحيطها الشك.
اللعنة أصابت مسؤولي البلاد، عادت المعجزات للحدوث، تحمس الجميع في البداية أمام الإصلاحات المتعددة، التي اضطر للقيام بها أثرياء ومسؤولو البلد، مساكن لمن فقدوا منازلهم، تعويضات مالية وعدالة في التوزيع، بدا الوضع مثاليًا لبعض الوقت حتى انتبهنا إلى أننا أيضًا تحت المجهر، وأن لا أحد يفلت من العقاب، ساد القلق، تحوّل لذعر دائم من الخطأ.. أدنى خطأ، فما بدا عدلاً سماويًا تجاه ذوي السلطة والمال، تحول لعقوبات رادعة للجميع بلا استثناء.
أخذت حذري مثل الجميع، حتى مع حمزة وزينة، لم أغضب أحدهما يومًا أو أرفض لهما طلبًا، رغم عدم اقتناعي كليًا بالامتناع عن عقابهما، إلا أن الحوادث حولنا كانت تردعني دائمًا.
رسمتُ صورة علاء مع صور الشهداء على جدار الكرامة الذي يوجد في كل شارع ليُمجّد شهداءه، ورسمت غيره الكثيرين، لا يواسي وجعي سوى تلك الرسوم التي تذكرني بمن ضحى، وأحمد الله أنني ما زلت مع طفليّ رغم كل ألم الحياة، اذيّل رسوماتي دومًا بـ«لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا».
ظل أمر وحيد لا أستطيع التخلي عنه، استمرّيت في البحث عن زياد، استمرّيت لا أعرف إن كان هذا عقابي أم خلاصي.
تساءلت كثيرًا كل ليلة تقريبًا، لمَ فشلت في نسيانه، لأنني لم أحاول بما يكفي؟ أم لأن قصص الحب التي تبقى حبيسة الخيال بكل جموحها.. وعذاباتها، تبقى أكثر خلودًا من أي نهاية سعيدة في واقع الحياة.
لا أصدق أنه مات، لا أشعر بذلك، أعرف كيف أشعر بعزيز مات، بأبي وحماي، أدعو وأستغفر لهما طوال الوقت، يجمعني رباط خفي بهما كأنهما في سفر بعيد يستقبلان رسائلي بامتنان صامت، ويؤجلان الرد لحين اجتماعنا في مكان واحد.
لم أشعر بذلك مع زياد.. شيء ما ظل يخبرني أنه حي، لا بد من أن يكون، لا أريد أن أبقى وحدي في هذا العالم الذي انقلب فجأة إلى جمال مخيف، وعدل قاس.
أنا أيضًا كنت أتمنى العدل مثل الجميع، أرى أقداري ظالمة، قصة حب أهدرت كرامتي، زيجة تمعنت في إذلالي، وحب مكلل بالإثم ملأ قلبي.

فلماذا صرنا نخاف العدل الذي طلبناه؟ ألم تكن أقصى أمانينا عقابًا فوريًا للأشرار والظالمين؟ من أدرانا أننا لسنا بظالمين، كيف تأكدنا، أم ظننا أننا سنتحكم في آلية العقاب الإلهي؛ فنسلطها فقط على من نريد؟
دعونا إلى وضع نهاية حاسمة لكل ظلم وشر، ولم يعلم أي منا أن الغد قد يحمل نهايتنا أيضًا.
بدا أخيرًا أن العدل أكثر من قدرتنا على التحمل، وبالتدريج فقدت الحياة إحساسًا ما.. شيئًا ما.. شيئًا بدا كأنه الحياة نفسها.

١٢

اتفقت مع محسن أن يصحبني لأغادر يوم الأربعاء، استيقظت مبكرًا هذا اليوم بعدما أصابني الأرق طوال الليل، لم يغمض لي جفن إلا ورأيتها أمامي؛ تارة تبتسم لي وتلوّح من بعيد، تحمل ابنها وتضحك له بحب، وتارة وهي جسد بلا حياة مدفون في الأرض.

ـ صباح الخير.. لا أصدّق أنك ستتركنا، بت أشعر كأنك أحد أبنائي.

دلفت سهير إلى الحجرة، وقد عادت أخيرًا دون توقع منذ أيام سليمة معافاة، وصلتني بعض الأقاويل والتخمينات عن الذنب الذي اقترفته فمرضت لهذا الحد، وجزم بعضهم بأنه مرض الموت، لكن ها هي هنا تتقدم نحوي بابتسامتها الأمومية المعتادة.

ابتسمت لها قليلاً وقلت:

ـ سعيد لأنني رأيتك قبل أن أغادر وأترككم أخيرًا.

ـ سامحني لأنني لم أستطع السعي فيما كلفتني به طوال الفترة الماضية، عن ابنتك ونورا، بسبب مرضي.

احتشد الرد في قلبي وخنق كلماتي، ثم قلت:

ـ لا عليك، معي صديقي سيساعدني.

قرأت ملامحي وغيرت الموضوع بسرعة قائلة:

ـ المهم حمدًا لل‌ـه على سلامتك، عليك أن تتنبه لصحتك جيدًا بعد أن تغادرنا، ولا تنقطع عن التدريب.

ـ أكيد.

صمتُ بتردد ثم سألتها:

ـ هل كان مرضك حقًا لأنك قمت بذنب ما؟

ضحكت نصف ضحكة ثم قالت:

ـ سمعت أنه انتشر كلام كثير عن هذا، لكن الناس لا تتوقف عن الكلام والظن، كأن الل‌ـه معنا الآن فقط ولم يكن حاشاه من قبل! كل الناس تمرض وتتعثر وتموت أو تنجو بأمر الل‌ـه، من بداية الخلق وحتى يوم الدين.

ـ ألست مثل الجميع سعيدة بتغيير الأوضاع الآن؟ لا أصدّق سعادتهم، لكن المهم أنهم شعروا أخيرًا بالتدخل الإلهي المنشود، بعد أن ظن الكل أن الكون يرتع في الفساد دون عقاب أو حساب.

وقفت أمامي بجدية وقالت:

ـ الحمد لل‌ـه دائمًا وأبدًا، لكن حاشا لل‌ـه أن يترك عباده، نحن من تركناه.. من ابتعدنا عنه.

ـ هذا رأيك، لكن ما أعرفه أننا كنا وحدنا تمامًا.. دون دليل.. دون شيء ينير لنا الطريق، كل شيء كان متروكا هكذا، دون أدنى تدخل ملموس.
ـ نحن معنا ما ينير الطريق بالفعل لكننا من نسينا.. تركنا المنهج الذي تستقيم به حياتنا، فغرقت الدنيا في الفساد.. «كما تكونوا يولى عليكم» يا بني.. ربنا يرحمنا برحمته.
رمقتني بأسى وتابعت:
ـ اخبرك أمرًا؟ الناس لم تعد كما كانت منذ خمس أو ست سنوات بعد الزلزال، عادوا يغتابون ويغشون، وبعد سنتين أو ثلاثا ستجدهم نسوا كل شيء عن العقاب والكدمات الزرقاء، وسينسون الزلزال نفسه، نحن من ننسى دومًا يا بني، لذا يضع الله لنا دائمًا إشارات وعلامات تذكرنا.. المهم أن نفهمها.
لم أجد كلمات في ذهني أجادلها أو أرد بها، تمتمت فقط بعد قليل:
ـ شكرًا.
فغادرت غرفتي تودعني بنظرة حنان وتعاطف.
سرحت عيناي للشرفة.. لم أدر لِمَ استشعرت هذا التردد وتلك الرهبة وأنا أنظر للسماء..
علامات؟
أحقا كانت أبواب السماء مفتوحة لكلماتي ذلك اليوم؟
أهذا عقابي؟ عقابنا جميعًا؟ أن تنتزع منا حرية أن نخطئ؟ فبدلاً من أن تمنحنا الحياة كل شيء.. أخذتْ كل شيء، وتحوّلنا إلى دُمى مذعورة تخشى القرار؟
تلك الحياة الخاوية الغريبة عقابي أم حياتي الماضية هي العقاب، فلم أشعر بأي بهجة كانت بين يدي؟
وربما كلتاهما لم تكن عقابًا، وكنت فقط أفتقد الصبر والمواجهة، أبحث عما فقدته ولا أتمتع بما لدي، امتلأت سخطًا وكرهًا لدنياي كلها فنبذتني، طردتني منها ستة أعوام.
انتهى الطريق الذي سخطت عليه، واختفت العلامات التي لم أفهمها ونقمت عليها، وقع الجنون وتغيّر المسار الإجباري.. تغيّرت الحياة، خرقت السماء الأرض التي تمنيت خرقها يومًا، وألقت عدلها في الوجوه.
هذا التفسير الأقرب لي، والذي يبدو إجابة تساؤلات بحثت عنها يومًا.
ورغم كل هذا.. رغم وحدتي الحقيقية؛ يغمرني فجأة هذا الهدوء كأنني أعلم كل خطوة قادمة في حياتي، كأنني أمسكت بأطراف الإجابات.. حتى لو لم أفهمها كلها.
أغمضت عيني..
يا الله.. كم أحتاج إليك.. إلى عونك..
لا أحد معي.. لا أعرف دنياهم.. كلهم غرباء في عالم غريب..
رحل كل من أحببتهم.. ووحدي بقيت وأدركت.. أدركت أنني لست بحاجة إلى مد بصري للسماء إن كان أثرك في قلبي.. فهَبهُ لي.

١٣

بعض الصباحات يُغلفها حزن شفاف، لا تستطيع الإلمام بجذوره، تلجأ لصناديق البهجة المخزنة داخلك، لينتهي بك المطاف متربعًا بائسًا على عتبات القلب.. بعد أن أنهكك الطريق إلى ذاتك.

بدأت الطرقات على باب منزلي من بعد صلاة الفجر، لم أستطع النوم، بدأوا في التوافد فرادى فتحملت وصبرت، وحاولت إفهامهن أن ليس لي أي بركات، وأن صاحب الحاجة أولى بالدعاء لنفسه، فذهب كل كلامي سدى، وعندما كثرت الأعداد، لم أفتح، يا الل-ه! كنت أسمع أن فلانا أو علانا له كرامات وكنت اصدّق مثلهم، أكان يعاني ما أعانيه؟ يستشعر هذا الفزع والضآلة؟ أم كان صاحب كرامات حقيقي يبتسم بهدوء ويعظهم بثقة؟

كم نحن مولعون بتقديس الأشخاص! يجب أن نبحث عن وسيط بيننا وبين الل-ه حتى لو هبطت السماء فوق رؤوسنا مباشرة.

لا يمكنني تحملهم أكثر من ذلك، لا أستطيع اتهامهم بالنفاق، لكن ربما بالسذاجة وقلة الوعي، بالأمس كنت عاصية، خطرًا عليهم، والآن تقيّة نقيّة مستجابة الدعاء! لا بد من التطرف؛ من أقصي اليمين إلى أقصى اليسار، لا يوجد وسط أبدًا، لا يوجد تعقل.

وقررت؛ سأستقيل اليوم وأذهب لمزرعة عمر وكريم بلا رجعة.

ذهبت أوقظ الطفلين، أرتب الاستقالة التي سأقدّمها اليوم دون تأجيل، فلو أجلت لتراجعت في موقفي مجددًا، وأنا منهكة لا أحتمل مزيدًا من الخيبات والآمال الواهية.

ـ لا أريد الذهاب إلى المدرسة، سأغيب اليوم.

قال حمزة بصوت ناعس، فهتفت بحدة:

ـ لا لن تغيب اليوم أيضًا! يكفي ما غبته طوال السنة.

نظر إليّ بقلق وأصرّ:

ـ وما المشكلة؟ قلت لك لا أريد الذهاب!

رمقته بغضب ولم أستطع أن ألين معه كما فعلت كثيرًا من قبل بدعوى الخوف من الحوادث المفاجئة، أنا لا أخطئ لأتوقع العقاب، وهذا الولد يجب أن أكون حاسمة معه.

أمسكت الأغطية أبعدها عنه بقوة وقلت بحزم:

ـ خمس دقائق وتذهب للحمام ثم تبدل ملابسك وتأتي إلى المطبخ لتتناول فطورك لتذهب إلى المدرسة، وإلا سألغي المعسكر الذي اشتركت فيه وسأحرم من مصروفك إلى آخر الشهر! هيا!

بدا عليه مزيج من الفزع والتمرد، فتركته يتخذ قراره واتجهت لغرفة زينة، وجدتها تنهض من

السرير ونفس نظرة القلق في عينيها وهي تخبرني بسرعة:
ـ أنا لن أغيب!
ابتسمت رغمًا عني ومسدت شعرها بحنان:
ـ أنت حبيبتي العاقلة يا زينة، توضئي وصلي وتعالي لنفطر بسرعة كي لا نتأخر عن المدرسة.
أومأت زينة برأسها، فاستدرت بسرعة أخفي دموعًا حرقت عيني.. كيف أنسى وأنا معي جزء عزيز وغالٍ منه؟ لا.. لا أريد أن أنسى.
أوصلتهما إلى المدرسة وبقيت في سيارتي أراقبهما ببسمة شجن حتى اختفيا بالداخل، رنت في ذهني كلمات أبي في إحدى أمسيات الشرفة البعيدة، كوب الشاي الأحمر أمامه على السور المعدني، وصوت أم كلثوم يتغنى بحنان، فشردت منه نظرة تحمل خبرة العمر وقال:
«أحب أحيانًا أن أراقبكم من بعيد؛ هناك لحظة إدراك تتسلل إلينا وتغمرنا بنورها ونحن نراقب نمو أطفالنا، نراهم يتحولون تدريجيًا إلى شخصيات مستقلة، لها طباعها وأفكارها الخاصة، إدراك أنهم ليسوا مجرد نسخ منا.. ليسوا إحدى ممتلكاتنا، أنهم أكبر من ذلك.. خلق جديد عبرنا، كنا له كآباء وأمهات بوابة حياة. نعم نربي.. نراقب.. نحبهم ونرسخ الأساس.. لكن لكل منهم كيانًا كاملاً مستقلاً لا يشبه أحدًا. إحساس بالرهبة وأنا أفكر في دوري من جديد بشكل مختلف، أشهد كل يوم قدرة الله في الخلق من خلال هذه الكائنات المحببة الصغيرة، وأحمده الذي جعلنا منافذ للحياة».

* * *

وصلت إلى المستشفى أهدأ حالاً، أخف روحًا، أرتب لانتقالي بمنطقية، سأحوّل الصغيرين إلى مدارس قريبة من المزرعة، فالكثير من المدارس الرائعة منتشرة هناك، لا أعرف ماذا أفعل أكثر من هذا لأصل إليه، ست سنوات أبحث وأسأل في كل مكان، أتجاهل الخوف من أن أجده فعلاً وأكتشف أنه لا يذكرني، لم يفكر بي أو يبحث عني مثلما بحثت عنه، أعزي نفسي بأنني في كل الأحوال اعتنيت بابنته، وأن هذا عذر مناسب أواري به خجلي وكسري إن وجدته ولم يعد يهمه أمري، أكاد أصدّق في بعض الأوقات أنني أبحث عنه فقط بسبب زينة، ثم يرتعش جسدي.. ويتهاوى قلبي، حين أفكر في لحظة اللقاء.
تحملت كل شيء، حتى لم يعد بمقدوري المزيد، ولم يعد بمقدوري أن أبقى وحدي بينهم.
وبقرار مفاجئ قررت أن أزور ثريا لأغلق هذه الصفحة وأتجاوز ما فعلته بي، أما زالت متبجحة كما هي؟ استجمعت شجاعتي وسألت عن مكان غرفتها، دخلتها بعد طرقات دون رد، وجدتها جالسة على كرسي متحرك أمام نافذة تحدق في الفراغ بملامح متراخية، ولا تصدر عنها أي حركة، شاخت ونحلت، وبدت امرأة غير التي عرفتها من قبل.
ـ كنت أعرف أن قلبك سيأخذك إلى هنا.
انضمت لي فاتن فجأة، فابتسمت بحزن:
ـ مجرد فضول، ما حالتها؟
رمقت فاتن العجوز بتعاطف، واقتربت منها تبعد ذبابة حطت على وجهها الخامل:

ـ الأطباء أخبروني أنها منذ ست سنوات على نفس الحال، لا تتذكر شيئا ولا تنطق بحرف، تتدهور حالتها أيامًا فيظنونه مرض الموت، لكن في اليوم التالي يجدونها كما هي، لا تموت ولا تحيّا.. سبحان الل-ه!
ـ منذ ست سنوات وهي هنا؟
ـ هنا بالتحديد منذ ثلاث سنوات فقط كما عرفت. تعرفين؛ قامت عدة مستشفيات بتجميع الحالات النادرة منذ الزلزال هنا، كي يسهل العثور على أهاليهم. دخلت هي المستشفى في صباح يوم الزلزال المشؤوم، بعد أن تعرضت للسرقة والضرب الليلة التي قبلها، لا أعرف ما الذي جعلها تذهب إلى منطقة شعبية كهذه، الجماعات المتطرفة لو تذكرين كانت منتشرة وقتها، وربما هم السبب، الل-ه أعلم، هذا كل ما وجدته مكتوبًا في ملفها.
نظرت إليها وعلى فمي الكثير من الكلمات، هل الوقت مناسب لفتح الماضي لأذكرها بخطيئتها الكبرى والمتسبب فيها؟
تابعت هي:
ـ لم يكن معها أي أوراق، لم يعرفوا اسمها إلا من السلسلة المكتوب عليها اسمها، وكانت تحت ملابسها فلم يسرقوها، وسُجّلت فقط ثريا، لكنني بفضل الل-ه وجدتها، خيرها عليّ مهما كان، وسبحان الل-ه لعل برّي بها سبب الخبر الحلو الذي سأقوله لك.
انتبهت لإشراقها وتورّد وجهها الفرح، وهي تكمل بخجل وسعادة:
ـ الدكتور إيهاب، دكتور طيب جدًا يعمل هنا في المستشفى، أخبرني أمس أنه يود الارتباط بي، وأنه يحترم إخلاصي وعيادتي لمريضة لا تشعر بوجودي ولا بأي شيء، سبحانك يا رب، لم أنتبه له أبدًا من قبل، لم أشعر أنه معجب بي، وسبحان الل-ه أكتشف أنه يتابعني منذ فترة ويطلبني للزواج، أنت قدم الخير دومًا يا نورا!
واقتربت تحتضنني بحماس وفرحة تسري فيها وتنتقل إليّ، قلت من قلبي:
ـ أنا سعيدة جدًا لأجلك يا فاتن، جدًا!
وضممتها أنا هذه المرة بسعادة.
عدتُ لمكتبي صافية النفس، مضت أول ساعتين برتابة حتى أخبرتني زميلة بعد عودتها من البوفيه ومعها كوب شاي:
ـ كنت تسألين عن سهير باستمرار، أليس كذلك؟ قالوا لي إنها عادت منذ عدة أيام لو تريدينها.
وجمث.. ثم شكرتها وعدت لصمتي.
بقيت في مكاني لدقائق حتى لم أعد أتحمل توتر أعصابي، نهضت مسرعة أبحث عنها، لن أترك أي أمل ولو كان واهيًا.. لا أستطيع.
بعد سؤال ممرضتين أخرتين وصلت إليها، كانت امرأة خمسينية طيبة الملامح، فتقدمت منها أرسم ابتسامة على وجهي:
ـ حمدًا لل-ه على سلامتك.
ـ الل-ه يسلمك، أهلا بك، أتزورين أحدًا هنا؟ سامحيني لا أذكرك.

ـ لا، أنا أعمل هنا في قسم الحسابات منذ شهر، منذ إجازتك تقريبًا، و.. وددت لو أسألك عن.. عن بعض الحالات التي نقلت للقسم الجديد الذي اسّس منذ ستة أشهر، الحالات المجهولة منذ الزلزال.
ضيقت عينيها مفكرة واتجهت لمكتبها تقول:
ـ أخبريني مزيدًا من التفاصيل، لقد سجّلت الحالات كلها هنا على هذا الملف.
تمتمت بيأس:
ـ لا أعرف تفاصيل، لا أعرف إن كان من أبحث عنه ما زال حيًا فعلا أم لا.
ـ اسمعي يا.. قلت ما اسمك يا بنيتي؟
ـ نورا.
ـ اسمعي يا نورا، أظن أن لدينا..
صمتت فجأة ونظرت إليّ بشك، ثم سألتني:
ـ ما الاسم الذي تبحثين عنه؟
ـ أعرف أنك لن تجديه عندك، فلم أجد اسمه مسجلاً في أي مكان.. بحثت في كل السجلات وال-..
ـ نعم نعم.. لكن هناك حالة غيبوبة منذ ست سنوات، وأفاق منذ خمسة أشهر فقط، وبعدما صفا وعيه وتأكدنا من بياناته أضفنا اسمه للسجلات، لا بد أنني فعلت منذ شهرين على الأقل.
وضربت بعض أزرار الكمبيوتر بسرعة واهتمام، قبل أن تبهت ويصفر لونها:
ـ كيف فعلت هذا؟ سجلت اسمه في قسم العمليات وليس في القسم الصحيح، ها هو؛ زياد عزت الشهاوي.. أهو الاسم الذي تبحثين عنه؟

* * *

هرولت في ممرات المستشفى بجسد مرتجف وقلبي يتقافز ويرجّ كياني.. زياد! وجدت زياد! لا بد أنه هو.. لكنه سيغادر.. سيغادر ولن أجده ثانية!
وصلت غرفته أفتح بابها دون أن أضيّع وقتًا في طرق أو استئذان، كاد قلبي يتوقف، أرى الفراش خاويًا والحجرة ساكنة؛ عندما وجدت حركة في الشرفة.. شبح يعود للداخل معتمدًا على عكازيه. حدقت فيه والثواني تمر ببطء قاتل، حتى تقدم أكثر وتبينت ملامحه..
ـ زياد!
صرخت، فتجمد مكانه والدماء تهرب من وجهه.. هرعت إليه وانهرت أرضًا في نصف المسافة أبكي وأنا أنظر إليه.. ارتجّ عكازاه قبل أن يتهاوى بجسد مصدوم على ركبتيه لا يستطيع النطق بكلمة..
هتفت من بين نحيبي:
ـ أنا نورا يا زياد! بحثت عنك ست سنوات.. ست سنوات لأخبرك أنني.. لم أنسك يومًا.. لم أصدّق أبدًا أنك مُت!
مزقت شهقات البكاء صوتي:

ـ زينة معي.. ابنتك بخير.. أربيها مع حمزة منذ ست سنوات وأبحث عنك.. آه يا زياد بحثت عنك طويلاً.. طويلاً يا زياد!
أغرقت الدموع عينيه، وتماوجت على ملامحه سنوات الوحدة والتعب، دفنت وجهي بين يديّ أنخرط في بكاء خرج عن سيطرتي.

* * *

أطبق بقوة على يدي، وأنا أجلس بجانبه وأبتسم له، فيقول:
ـ كان علينا الانتظار، ليس بعد كل ما عانيته وحدك طوال هذه السنوات؛ تعتنين بزوج لا يستطيع المشي خطوتين وحده، وكدماته الزرقاء لم تختفِ كلها بعد.
وضعت أناملي على فمه:
ـ ستختفي، أعرف أنها ستختفي.
أصبحنا وحدنا أخيرًا بعد احتفال هادئ لعقد القران بحضور أخويّ ومحسن صديقه، وبعد وداع حار للصغيرين، وقد أصرت زوجتا عمر وكريم على أخذهما معهما للمزرعة لعدة أيام.
نظر لي طويلاً ثم سألني:
ـ ماذا يحدث يا نورا؟ أتصدّقين الدنيا التي يعيشون فيها؟ أتصدّقين فعلاً أن.. اللـه معنا، بهذا الشكل الذي يثير الفزع؟
ـ آه يا زياد، مهما حدث ومهما يقولون، رغم كل الموت والخوف؛ يقيني برحمة وكرم اللـه يزداد كل يوم، مع كل ما رأيته وعانيته طوال السنوات الماضية، لم يكن معي يحميني وينصرني إلا هو.
ـ إذا كان كل هذا حقيقيًا؛ كيف لم تتحوّل الأرض لجنّة بعد؟ كيف أرى الناس كما هم، فقط ازدادوا تعاسة وخوفا!
ـ لأننا لسنا ملائكة يا حبيبي، ولا نتحمل أن نكون، كلنا نخطئ.. وسنظل نخطئ، ولأنني رأيت بعيني كيف يُحوّل الناس أي هبة سماوية للعنة وقلق وخوف، سرعان ما يتنازعون على مكاسب شخصية وسُلطة على الغير، ولو وهمية.
ـ رغم كل ما تقولينه ما زال كثير من الأسئلة دون إجابة.
ـ ربما لأن لكل إجابة أوانا، والأوان يأتي مع البصيرة.
مسّ وجهي برقة:
ـ ألست خائفة مثلهم؟
ـ كنت أخاف، ثم تعلمت أنه لا يمكن للخوف أن يحمي ويَجبُر وينقي الروح، لو استسلمت للخوف لما تركت الأمان في المزرعة وعشت هنا وحدي أربي الطفلين وأبحث عنك، لما صمدت كل هذا حتى وجدتك.. وجدتك يا زياد بعد كل هذا!
ـ كيف لم تنسي؟
ـ أمام كل محاولة منكَ للتذكر بذلت ألفا للنسيان، وفشلت.. فشلت لأنني لم اصدّق أنه يمكن أن أنسى.

همس يتأملني بحنان:
ـ لا أستحقك يا نورا، لا أستحق كل ما عانيته لأجلي!
ـ لا تجعلني أبكي.. لا أريد، بكيت كثيرًا وحدي وأنا أنتظرك.. فلا أريد الآن أكثر من أن تدعني أبقى قربك، أرجوك!
لمعت عيناه بدمع دافئ.. بحب، بدا الجالس أمامي الآن مختلفًا كثيرًا عن زياد الذي عرفته، ليس لنحوله أو اللمسات الفضية التي غزت سواد شعره، بل في كل شيء، في هذا الإحساس الجديد المرسوم على وجهه.. في نبرة صوته المشبعة بالحنان، أحببته من جديد.. أحببته أكثر.. أحببته بقدر ما يتسع الوجود للحب.
ـ أحبك يا زياد.. أنّ قلبي ودَمي؛ لفرط ما كتمها داخله.. احبك!
قبّل عيني برقة.. وضمني إلى صدره، يطوقني بحرارة أذابت عظامي.
لا يمكن أن شيئًا في الدنيا لم يتغيّر في اللحظة التي احتضنني فيها.. لا بد أن عقارب الزمن عادت للوراء تختصر ست سنوات من الوجع والوحدة..
أو أن زهورًا تفتحت في مكان ما، وتراقصت على وقع النسمات اللطيفة..
على الأقل أعرف أنه نبتت زهرة صغيرة في قلبي، لها عبير الجنّة.

«بخور»

داعب الدفء وجهي، فابتسمتْ، كانت طريقتها المفضلة لإيقاظي؛ أن تزيح الستائر قليلا لتدع شعاع الشمس يتسلل من الشرفة المقابلة للسرير. أصحو فيقع بصري على الخضرة والعشب النضر، وتمنحني أروع ابتساماتها.
اشترينا مزرعة صغيرة بالقرب من مزرعة أخويها، تكفي حاجتنا الأساسية من الخضراوات والفاكهة، وتولى أخواها مسألة اللحوم والدواجن من مزرعتهما، لم تعد المدن القديمة مغرية للعيش فيها، بازدحامها وتلوثها اللذين يتضاعفان كل عام، أحببت المجتمع الزراعي من أول زيارة؛ وتحمست للانتقال إليه لينشأ الطفلان بعيدًا عن التلوث، وكذلك التقلبات المناخية التي تسوء باستمرار، ما جعل البنايات المرتفعة خطرة وغير آمنة.
كما أن عملي كمهندس معماري مطلوب جدًا هنا، إضافة إلى وجود فرع نشط لتيار الإصلاح، انضممت إليه مع أخوَيْ نورا، فماذا أطلب أكثر؟
فتحت عيني هذه المرة ولم أجدها قربي، اعتدلت جالسًا قليلا، ورأيتها..
كانت تقف في هالة الشمس المشعة، منحت ابتسامتها الدافئة لوجهي المدهوش، ودارت بثوبها الأبيض كزهرة تيوليب خيالية، لمع حزامه الذهبي ببريق أخاذ.
بدا كل السحر في عينيها، وهي تتقدم مني وتقول:
ـ اكتشفت أنك لم ترني به أبدًا، فأحببت أن أفاجئك.
تناولت يدها، قبلتها ثم جذبتها لتجلس أمامي.. بشعرها المنسدل الطويل.. بثوبها.. بكل جمالها.. أتدري أنها أجمل علاماتي البيضاء؟
أخبرتها بذلك، فسألت ضاحكة:
ـ ماذا تعني بهذا؟
ـ هذا موضوع يطول شرحه، لكن يمكنني أن أخبرك.. أنك نوري.. وسكني، وأنني بك.. أتممتْ إيماني.
همست:
ـ لم أسمع كلمات أجمل من هذا!
لفت ذراعيها حولي بحرارة، قبل أن تتسلل إليّ رائحة البخور:
ـ لا بد أنها زينة! يا الله! كنت أتمنى حقًا أن تكون مثلك، لكن لم أتخيل أنها ستكون نسخة طبق الأصل!
أطلقت ضحكتها الرنانة المبهجة:
ـ يوم الجمعة له طقوس! هيا، لا بد أن حمزة ينتظرك بجلبابه الأبيض، وأنا سأرى زينة قبل أن

يأخذها الحماس وتحرق البيت.
أزحث الأغطية مبتسمًا بصمت، لأجلها كنث أحارب بقايا شكي وحيرتي، أستمدُ منها يقني، أمنحها بعد ما رأته من ويلات، الحياة التي طالما حلمث بها وانتظرتها.
نهضت بمساعدة بسيطة من عكازي، أخبرني الطبيب أنني سأستغني عنه بعد أسابيع قليلة، إن استمر تقدّمي بنفس المعدل.
سرت بضع خطوات، ثم نظرت لها أقول بحسم:
ـ لكن عندما أعود أريد «عرض الثوب» مرة أخرى، الطفلان أفسدا اللحظة!
ضحكث ثانية وأقبلت تحتضنني بحب وتقول:
ـ كل ما تريد.. لك كل ما تريد.
نعم حصلت على ما كل أريد، بعد أن فقدت كل أمل في الحصول عليه؛ أتاني الل-ه بهم جميعًا، كأنه تعويض عن كل ما أصابني.
تعويض لا أدري مدى أحقيتي به، لكنه منحني سكينة في طريق اعتدت السخط عليه.
حاولت، حاولت بصدق هذه المرة أن أراه بشكل صحيح، أن أبقى خارج السباق بعض الوقت لأن هناك ما يستحق التوقف لأجله، لكننا لا نراه في عجلة الحياة، ولا ندرك أن معركتنا الحقيقية مع أنفسنا.. مع تلك الأفكار والمخاوف في صدورنا.
ما زلت غير متأكد إن كانت الدنيا تغيّرت فعلاً بسبب العقوبات الفورية، أم أنه مجرد إيحاء نفسي سيختفى مع الوقت، لكنني متأكد أن كل ما يحدث؛ رَمية حجر.. ضربة قوية خلقت دوامات حرّكت مياه النفوس الراكدة، والأرواح الغارقة في الوحل.. بعد أن استسلمنا لليأس وملأنا العطن، فتوقنا عن البحث والتفكير والصبر.
البعض أغرقه الحجر وغاص للقاع حتى قضي عليه، والبعض الآخر تحرّر.. تطهّر.. ورآها علامة النجاة.. العلامات التي تذكرنا وترشدنا كما يؤمن البعض.
المهم أن ندرك، ونقدّر حرية أن نختار.. ونواجه نتيجة خيارنا.
أتراني اقتربت؟ لستُ واثقًا، ولم أجد كل الأجوبة، لكنني على الأقل أبصرتُ، أدركث ونور جديد يتسلل لقلبي، أن رحلة حياتنا كلها؛ ما هي إلا انعكاس ليقيننا بأنفسنا.. لاستحقاقنا الحياة، انعكاس لأثر الل-ه داخلنا.

تمت

أغسطس ٢٠١٥/سبتمبر ٢٠١٧

خالص الشكر للقراء الأعزاء لانتظارهم وسؤالهم ودعمهم المستمر لي، أنتم بدايتي ومُنتهاي.
كل الشكر والحب لأسرتي؛ أبي العظيم الذي لم أستوعب بعد أنني يجب أن أضيف جملة ـ رحمه الل-ه ـ كلما كتبت عنه؛ د.سمير شحاتة، تمنيت كثيرًا لو أنك معي الآن، تزهو بي كعادتك، تحدّث أصدقاءك عني، وتهتم بكل التفاصيل.
أمي الغالية الحبيبة مصدر كل حنان وجمال، إخوتي قرة عيني؛ شيماء ود. أحمد ومحمد.
كل امتنان وحب وتقدير التلميذة لأستاذها؛ زوجي أحمد عبد المجيد، لولاك، لولا دعمك ونصائحك وحثك لي على البحث عن الأفضل دائمًا، ما خرج العمل بهذا الشكل، ممتنة لوجودك بجانبي في عالم الأدب الرائع وسعينا معًا للارتقاء، وممتنة أكثر لوجودك في حياتي.
شكر بلا حدود للزميل والأخ العزيز الكاتب محمد صادق، لملاحظاته القيّمة التي كان لها دور كبير في تغيير رؤيتي للعمل وكتابته بشكل مختلف.
وشكر بقدر الكون لأجمل مجموعة صديقات، من يتركن كل شيء ليتحولن إلى ورشة عمل خاصة لكل رواية أكتبها، فيقرأنها مرات عدة، في مراحل مختلفة، بحب واهتمام ودعم وتشجيع يفوق الوصف، شكرًا بحجم حبي لكنّ:
هالة المنسي، أسماء شعبان، د. هدى الدكروني، د. أسماء عبد الحميد، د. منال زورق، شيماء نصر، هدى إسماعيل، مروة رمضان، هبة أحمد، ياسمين مجدي، إيمان راشد، هبة سعيد، د. أمينة نصر الدين، هبة المقدم، رانيا الأسود، إيمان أحمد.
تحية وعرفان لكل الأصدقاء الذين قرأوا العمل في مراحله الأولى واستفدت من نصائحهم وملاحظاتهم: مي أشرف، شيرين سامي، هدى عبد المنعم، سحر محمد.
حب ومودة وشكر دائم لصديقتي العمر؛ مروة ممدوح، ودينا صلاح.
خالص حبي لطفليّ: من تأسر الروح؛ بسنت
ومن يملك القلب؛ عليّ.
شكرًا لتلك التي ألقيت فيها أسئلتي وحيرتي ووصلنا معًا للضفة الأخرى..
تلك التي سَميثها..
رَمية حَجر.

للتواصل مع الكاتبة:

صفحة الكاتبة على موقع facebook:

https://www.facebook.com/marwa.samir.official

https://www.facebook.com/Marwa.Samir2014

صفحة الرواية على موقع goodreads:

https://www.goodreads.com/book/show/36297305

Table of Contents

ومضة
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٣
«بخور»
للتواصل مع الكاتبة: